ريم بدر الدين بزّال
ذاكرة ميت
روايه
الطبعه الثانيه
ريم بدر الدين بزّال
ذاكرة ميت
روايه
2016
الفنادق لا ذاكره لها
لأنها لو فعلت تحولت إلى بيوت
و صارت أقل فخامة من البيوت التي نقطنها .. نحن نشعر بأن المكان لنا
عندما نحشر في أحد زوايا خزانته كيسا ما
أو عندما نضع الحذاء تحت الطاولة أو نرتب أشياءنا الصغيرة كمقص
الأظافر مثلا في أماكن غريبة ..عندما تضعين الكتاب تحت مخدتك
و أنت توقنين أنك لن تضطري لتبديل مكانه غداً
عندما تغادرين الغرفة..
فالمكان باق و كل شيء محتفظ بذاكرته
سوريانا
2016

ذاكرة ميت

رواية

ريم بدر الدين بزَّال

- ذاكرة ميت.
- ريم بدر الدين بزال.
- رواية.
- الطبعة الثانية ٢٠١٦
- عدد النسخ ١٠٠٠ نسخة.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تصميم الغلاف: م. آيات الشوا

مؤسسة سوريانا للإنتاج الإعلامي

ذاكرة ميت

رسائل الحياة من غربة الموت

بقلم الأستاذ عماد عبيد

حين تحشد حواسك وتستنفر إرادتك للولوج في دروب سردية مجهولة المعابر، ووعرة المسالك، تتنازع في دواخلك عزيمتان متضادتان تتناحران بين الجذب والتراخي، عزيمة مثبطة تدعوك للنكوص والتراجع والاعتكاف عن مغامرة صعبة المراس ومرموزة الرؤى، وعزيمة دافعة تحثك للمضي قدما نحو مجاهيل غامضة المصائر وعصية على التكهن التنبؤي للعوالم السردية التقليدية المنهج، فتتوهج جمار المغامرة في مواقد الرغبة نازعة نحو الاكتشاف والتقصي، هذا هو الحال وأنت تسبر أغوار رواية ريم بدر الدين بزال (ذاكرة ميت) في عتباتها الأولى.

ثم ما تلبث حوافز الفضول أن تبدأ وصوصاتها، فتلكز خاصرة الهمة بمهاميز اللهفة مقتفية أثر الحروف المرقوشة على جدران

الحكاية، لتبدأ اللوحة بالوميض والتشكل وهي ترصد سيرورة الولادة ما بعد الموت، في أشارة إلى استمرارية الحياة ضمن مفهوم ينطلق من فكرة حلول الأرواح أو التقمص، تلك الفكرة التي بنت عليها الصديقة ريم بدر الدين بزال مداميك عمارتها الروائية هذه.

بغض النظر عن مدى إيمان البعض بهذا المعتقد أو إنكاره، فإن فن الروي باعتباره فنا حكائيا متخيلا، له حرية الخروج عن الوقائع والأحداث المألوفة وحتى المنطق العرفي للعلوم والمعتقدات، ليسهج في مفازات التخيل بحيث يبني لعالمه الروائي بنيانا يناسب الأفكار والرؤى التي تشكل ثيمة العمل الأساسية بما يخدم القيمة الفكرية التي سينتهي إليها.

رجل يسقط من بناء عال يحتضر قليلا ثم تخمد أنفاسه لتبقى روحه هي السارد لفصول هذه الرواية، بعد الموت أو بعد السقوط كما تسمي الكاتبة حالة الرحيل إلى الآخرة، تبدأ الحكاية، ولكن الآخرة ليست إلا بداية جديدة، حالة انبعاث،

بيد أنها ليست من العدم، فهناك الذاكرة المصاحبة للروح الهائمة الباحثة عن قميص ترتديه، يعيد لها أنفاسها التي لفظتها خلال سقوطها، وهناك العين الراصدة لهذه الروح الهائمة وهي تجول بحثا عن مبتغاها بعد أن خذلتها حياتها السابقة بمنغصات متتالية، ويستمر البحث فكلما انتهى قميص الجسد تتجدد الروح في قميص آخر، من خلال هذه الرؤية تبرز ثيمة العمل في فكرتين أساسيتين، الأولى هي تجدد الحياة بعد الموت، وما الجسد إلا وعاء هش سينتهي إلى التراب والدود كما هي حال جثة بطل الرواية (مجهول الاسم)، لتبقى الروح هي الضمير المستمر لسيرورة الحياة، والفكرة الثانية هي اختلاف المنظور للحياة مابين قبل الموت وبعده، بحيث تصبح الرؤية كلية وأكثر سعة من حالة الضيق التي تلبس الجسد المتطلع لحاجاته ورغباته وطموحاته في حيواته السابقة، فضلا عن التحلي بالحكمة والصبر المتوارث عن تجارب سابقة.

بين الفنتازيا والكوميديا السوداء تؤثث ريم روايتها متكلة على قلم سردي رشيق استطاع أن يحقق شرط باختين في بناء شخصيات الرواية وقدرتها على النهوض بواجباتها معتمدة على حبكة روائية محكمة الصنعة، وأسلوب فني انتهج مكننة سردية جديدة باختيار العتبات المتبادلة لفصول الرواية في تقنية حديثة يتغير معها منظور الروي، دون تنظير أو بهرجة اتكائية على مقولات مصنعة مسبقا، حيث نجد عتبات السرد متبادلة الأدوار بين (ورقة) والتي تقصد فيها العودة إلى الذاكرة وهو ما يسمى بالروي الاسترجاعي، وبين (الخروج من الذاكرة) وهي حالة الروي الراهنة، أسندت فيها المهمة إلى سارد وحيد وهو الرجل الذي سقط.

ولكي تهرب من تعدد الرواة الذي ينبغي معه تعدد في الشخوص مما يترك خللا سيمس بفكرة الرواية المعتمدة على إعادة إحياء للروح التي تولت السرد بمعزل عن معرفة الآخرين ودرايتهم بها.

قيمة الرواية جاءت من تركيزها على فكرة التقمص والحلول التي تكاد تكون غير مسبوقة، رغم أن بعضا من الكتاب وظفوها في أعمالهم، (غابريل غارسيا ماركيز في رواية (مئة عام من العزلة) .. وممدوح عزام في رواية قصر المطر.. وجميل شقير في رواية التجديف بالوحل.. وفادي عزام في رواية سرمدة) غير أنهم جعلوا من الفكرة حاملا فرعيا تم توظيفه لخدمة الأفكار الرئيسية لرواياتهم، لكن ريم بزال اعتمدت على الفكرة كحامل أساسي وغاية نهائية لروايتها، ومن هنا نرى أن حوارات الرواية تركز على المنولوج والحوار الداخلي ليكون الديالوج حوارا خجولا في بعض عتبات النص، وهذا ما تفرضه طبيعة الرواية.

عمارة الرواية صاغتها لغة بسيطة وليست سهلة بنفس الوقت، فهي سلسة القراءة رغم غموض الأفكار وترميزها، كما أنها لم تعتمد على الإطناب والإسهاب للوصول إلى الكم الذي ينشده بعض الكتّاب، وفي طياتها نلمح الكثير من الوصف

الشيق للأحداث والشخصيات والأماكن، بلغة محلقة ومقنعة بأن معا.

غياب الزمان والمكان جاء مقصودا خاصة أن الرواية مبنية بطريقة الفنتازيا الواقعية، أي تضمين أحداث واقعية لأفكار غرائبية أشبه بوصفة سحرية في سبرها لوقائع غير مألوفة، وقد لا نعثر على مكان ثابت الهوية في سيرورة الأحداث، إلا أننا نكاد نعرف تلك الأمكنة لأن الوصف نقلها إلينا، فترجمتها ذواكرنا التي خزنتها يوما ما، وفيما خلا مقطعا بسيطا عرج على زمن الوحدة بين القطرين الشقيقين (المقصود سوريا ومصر) في حالة وصف استرجاعي للراوي، فإن الزمان يكاد يكون هلاميا، وباستثناء الراوي ذي الروح العائدة إلى الحياة والذي بقي مجهول الاسم في تورية مقصودة كونه غير مرئي إلا للقارئ، فإن باقي الشخوص واقعية من لحم ودم رصدتها الكاتبة في سكناتها وخلجاتها وتطلعاتها بلغة ماتعة، فأمل امرأة لامبالية تسكنها طموحات فوقية ترنو إلى حياة باذخة،

وصـديقتها سمـيرة أكثـر واقعيـة منهـا بحكـم ثقافتهـا الأوسـع، وكذلك جميلة (زوجة الراوي) التي عاشت بائسة وماتت موتا أكثر بؤسا مع جنينها الراحل معها، في حين كانت الجدة امرأة جسورة قوية استنبطت قدرتها من حياة الفقد والوحدة التي تعيشها، أما زوجة الخال فهي تمثل ربة البيت الطامحة للأمومة والمسكونة بهاجس الإنجاب تحكمها رغبة نفعية في التعامل مع الآخرين، لتكون رؤى تلك الفتاة الجامعية هي الأكثر إثارة والتي استطاعت الربط بين سقوط الراوي وعودته ومن ثم لبسه لقميص المولودة (ندى) وهكذا فإن رسم الشخصيات أدى وظيفته في مسيرة الأحداث كأننا ضمن جوقة يعرف فيها كل فرد دوره.

تتجلى الكوميديا السوداء في حيثيات السرد وتجوال تلك الروح في الدروب والأمكنة التي تعرفها أو تريد التعرف عليها، مراقبة عن بعد أحوال الناس وحركاتهم وحتى أنها استطاعت أن تتطلع على أسرارهم، وبعد ارتدائها قميص الطفلة ندى تأخذ دورا

أكثر غرائبية، فرغم انحباسها في قفص هذا القميص إلا أنها استطاعت أن ترصد حركات وحوارات وتصرفات من حولها بوعي لا يتناسب مع جسد الطفل الذي لم يحبُ بعد، ثم ما تلبث أن تتحول تلك الكوميديا الغامقة إلى تراجيديا مدهشة في نهاية الرواية حيث اقتضى المشهد حبس أنفاس الطفلة، لتنتقل (روحها، روحه) إلى قميص جديد ليس بعيدا عن أشخاص الرواية.

دون اعتراض أو استنكار لواقعة حلول الروح التي اقتبست منها أفكار هذا البناء الحكائي، سيجد القارئ خياله يشطح في فضاء الرواية، متعقبا حركات تلك الروح التي عبقت حواسها في حيثيات السرد، وعندها سيضطرب تفكيره وتتلاطم في مخيلته فكرتان متناقضتان، فكرة تثير فيه الإعجاب والتوق للتعرف على مصائر الأرواح القادرة على التنقل والتفكير والحلول بأجساد جديدة تبعث في نفسه نفحة تفاؤل واندهاش، في رؤية مختلفة لكينونة تتجدد دون انتظارات

آخروية، وفكرة مرعبة تبعث في النفس الريبة والحذر، إذا علمنا أن حولنا أرواح تراقبنا وتتلصص علينا قانصة أسرارنا ومطلعة على خفايانا، وهنا تبرز جمالية المشاهد التي شكلت لوحة الرواية، بحيث يخرج القارئ من حدود الفنتازيا واستحالة الفكرة، إلى واقعيتها والعزوف عن مناقشة منطقها، بل الانصياع إلى شروطها والانسجام مع عوالمها والتماهي في أحداثها.

قد يستغرب القارئ سبب لجوء الأديبة ريم لفكرة الحلول والتقمص وجعلها الحامل الأساسي لثيمة الرواية، بل قد يظن أن أنها تؤمن إيمانا مطلقا بهذا المعتقد، لكن في الحقيقة ما الحلول والتقمص سوى الآلة الخيالية التي عبرت بها حدود الواقع الساكن إلى رؤية أشمل للحياة، مجردة من النفعيات وسفاسف الأمور من منظور الغائب الحاضر اللامرئي، كأنه يعيد حساباته مع حياة سابقة، ليستفيد منها ويتخطى أخطاءها للوصول إلى حياة نقية تستبعد كل سلبيات الماضي،

وكأنها دعوة للتفاؤل ونبذ للموت النهائي، وإن جاءت عبر فكرة فنتازية بأدوات الكوميديا السوداء، بدليل أن الكاتبة خلقت مفهومها الخاص لهذا المعتقد خلافا لما هو شائع بين المؤمنين به..

ذاكرة ميت.. هي ذاكرة تعج بالحياة تستمد تفردها وتميزها من غرائبية الفكرة التي خالفت منطق العلم وثوابت الدين، وقامت بشبك خيوط الواقع مع الخيال، تحاول ترسيخ مكانها كنهج أدبي حداثوي في دروب السرد الروائي.

عماد عبيد

لدى سقوطي على أرضية حديقة الطابق الأرضي.
بدوتُ مثلَ كيسٍ مليء بالأشياء الكثيرة الضوضاء، أو كتلة ضخمة من تكوينٍ لم يتبينوا كنهه. مع الاقتراب مني اكتشفوا أنني كائنٌ بشريٌّ
مكتملٌ في عقدي الخامس.

لفظت أنفاسا كأنها الأخيرة في رحلة السقوط.. كنت متيقنا أنه السقوط الأخير الذي أتعرض له.
ممدَّدٌ هنا... والناس حولي متسائلون مضطربون عمَّن أكون؟ لم يلحظوا بركة الدم التي بدأت بالتجمع تحتي، ولم يسمعوا صوت عظامي التي طقطقت بعنف بفعل الارتطام، أدركتُ أنها تهشَّمت بالكامل، وأصبحتُ كالطحين مما سيسهِّلُ على الدود مهمته التي سيمارسها قريبا.

ضخمٌ هذا الذي يقف هناك بكرشه الكبير، وقامته الصغيرة، ورأسِه الذي يتربع فوق كتفيه مباشرة، ينظر إليَّ بعينٍ حذرةٍ متسائلةٍ:لم اخترتُ أن أسقط في هذا المكان بالذات؟. ولِمَ تكون ملابسي بهذه الهيئة من الاتساخ وقلة الترتيب؟.

جمع من النسوة بملابسهن البيتية تحلقن حولي بدهشة واستغراب، وخوف أيضا. إحداهن قرأت لي الفاتحة في سرها بينما ظنت جارتها أنني قد لا أستحق هذا فربما كنت سكرانا أو لصا.

أكدت أخرى في سرها: لابد أنه كان في شقة الفنانة التي تسكن في الطابق

الأخير من البناء، فهي كثيرا ما تستضيف رجالا من كل المستويات!!.

لكنهم غالبا يأتون إليها بهيئة مرتبة وأنيقة ، وهذا مشعث قذر.

الليلة الفائتة كانت الموسيقى الآتية من شقتها صاخبة جدا، وفي الفترات التي تتوقف فيها الموسيقى سمعت ضحكا خليعا، لا بد أنه كان برفقتها.

ما أغباكِ!. أعرف بم تفكرين، أنسيتِ أنكِ أيضا تتسللين إلى الحمام مع هاتفك الخليوي بحديث مع طرف مجهول، وضحكات مكتومة؟

رجل عليه سمة الهدوء والوقار، بقامة منتصبة رغم تقدم العمر، ولحية بيضاء منسقة، وطاقية من الصوف الرمادي المغزول، قلبت صفحة من دماغه قرأت فيها: لا بد أن وراء هذا السقوط سرقة ما؛ فجارنا في الطابق الرابع قد ربح منذ أيام ورقة يانصيب بمبلغ كبير جدا.. إذا حانت لي فرصة أن اختلي بالجثة وأفتش جيوبه، ولو عثرت على شيء ثمين سأجري بثمنه عملية في دماغي لأنسى من آلمني.

رأيته هذا العجوز وهو ينظر إلى شقة الطابق الرابع ليرى أنه لا نافذة مفتوحة، وليس ثمة بللور مكسور، *فتح قوسين في رأسه وقال* (رغم ذلك لن يخيب ظني في تفتيش جيوبه.) أكد لنفسه. انتهت الصفحة فأشحت بعيني عنها.

أنت أيها المتثاقف الواقف بين المتجمهرين تتخيل أنها فرصة مناسبة لتستعرض نفسك أمام الحاضرين أسمعك تقول: إياكم ولمس هذه الجثة. ستجري الشرطة رفع البصمات، ألم يقم أحدكم بطلب الإسعاف؟ ربما هذا الرجل لم يمت تماما، أتمنى لو تصمت. صوتك مزعج له رائحة كريهة، أستطيع أن أشم رائحته المقززة بالرغم من فقدان حاسة الشم لدي.

أراكِ أنتِ ذاتَ التنورة القصيرة والنظاراتِ الرقيقة تقفين هنا حيرى متسائلة تحاولين البحث عن سبب منطقي لوجودي هنا، سأدخل من أذنك، مخطئة أنت عندما فكرت أنني ربما أكون ناشطا سياسيا هاربا ومتواريا في إحدى الشقق العلوية، خطأ يا سيدتي لا تحاولي أن تؤكدي نظريتك التي عززتها

ملاحظتك البارحة لعدد غير طبيعي ممن يظنون أنفسهم أتقنوا التواري في ثياب المخبرين السريين،كونك تسكنين في الشقة المقابلة للمدخل، سأنسحب من هذه الأذن مع أنها جميلة، فقد ولول صوت سيارة الإسعاف آتيا من بعيد، ولا بد أن هذا سيستدعي حضور سيارة الشرطة بعد قليل، لم يخب ظني إذ علت صفارات سيارة شرطة النجدة، وسع المتجمهرون حولي مكانا لمرور الطبيب الأخرق كعادة أطباء الإسعاف متبلدي الحس.

أيها الأبله، لا تقبض على معصمي بهذه القوة تعد النبضات؟ تتأسف؟ تلعن؟ تهز رأسك فيَّ لتعلن أنني فارقت الحياة دون أن تكلف نفسك عناء فحص بؤبؤي أو نبضات القلب أو معاينة الكسور؟.

تقول في سرك مقتنعا بأن تشخيصك صحيح تماما؟

أسمعك بوضوح: أشكر الله أنه أراحنا من عبء إجراء الإسعافات وما يستدعيه من عمليات.

هذه الجثة فعلت خيرا بمفارقتها الحياة ليت الجميع هكذا.

أعرف أن صديقتك تنتظرك في مكتبك على أحر من الجمر.

صوت أجش جهوري دوَّى في المكان، كان ضابط شرطة، متبخترا كطاووس، نافخا صدره ورافعا رأسه نحو الأعلى، مر بين الجموع: تراجعوا، لا تدع أحدا يغادر المكان ريثما ننتهي.

قام بتقليبي كما يقلب كيسا من البطاطا، ثم جعل وجهي باتجاه الأرض، لو كنت أقوى لعلمتك كيف أرد مثل هذه الإهانة.

حدث نفسه قائلا: لا بد أن أجد دليلا على شبهة جرمية وإلا فقدت احترامي في هذا الحي الملعون، أعرفهم سكان هذا الحي ألسنتهم طويلة حادة.

أعلن بصوت عالٍ: احضروا خبير البصمات ليقوم برفعها، واختموا المكان بالشمع الأحمر، وسيجري استجواب كل من كان هنا.

كم هو قاصر التفكير؟ كيف ستختم حديقة منزل بالشمع الأحمر؟. هل ستأبه العصافير والريح بقراره هذا؟.

دلف إلى المكان رجلان يحملان النقالة، لم يكترثا بحملي بعناية، فما الفائدة من المحافظة على سلامة عظامي المهشمة أصلا؟.

للمرة الأولى منذ زمن طويل يقوم أحد ما بحملي كنت مستمتعا بهذه الميزة بالرغم من أنهم يتجهون بي إلى مشرحة مستشفى.

سيارة الإسعاف التي وضعت فيها الحمالة أعرفها عندما رافقت زوجتي لتضع مولودنا ثم لتموت هي وهو في ذات المستشفى الذي يأخذونني إليه.

كان السائقان يثرثران ويتبادلان النكات كما لو أن الذي يقلانه في سيارتهما ليس جثة، لا بد أن هذا العمل ملأهما بالتبلد وفقدان الحس والشعور.

أدارا المذياع لتنطلق أغنية صاخبة مثيرة تناسب النكات التي تبادلاها.

موقف سيارات المستشفى مزدحم وباعتبار أن حالتي ليست مستعجلة فقد قررا أن يضعا السيارة في مرآب الشركة المجاورة ويحملا المحفة سيرا على الأقدام نحو الباب الخلفي للمستشفى.

تتراءى لي الأشياء والأشخاص وكأنني أقف خلف زجاج متسخ، أو في البرزخ الفاصل بين فضاءين مملوءين بسائل هلامي لزج شفاف.

يستطيع بصري إدراك ما لم أستطع أن أدركه، قبلا والنور غامر في الأرجاء، حتى السماء شفافة، أرى هناك فيها حركة ناس بيض يغادون ويروحون في شغل دائم.

كأنني مرفوع عني حجاب الماضي والمستقبل، ماذا أرى هناك؟ هذا الولد الصغير هو أنا!.

ورقة

وقفت بجانب الجدار المقابل للبقالية الوحيدة في حارتنا، أراقب العم أبو أحمد وهو يرص أصناف الفواكه في ترتيب مغر، تمنيت لو أحصل على تلك الموزة أو التفاحة، فالفواكه لا تدخل بيتنا إلا عندما يحصل والدي على مكافأة في وظيفته الهزيلة تلك كعامل تنظيفات، وغالبا ما تكون هذه الفاكهة رديئة وقريبة من التلف.

انتظرت غفلة من عين العم أبو أحمد واستللت موزتين وهربت، لعجلتي لم أدرك أن الموزة الأخرى قطعت من منتصفها! لا بأس، أن تحصل على موزة ونصف خير من لاشيء.

تواريت في خرابة وبدأت ألتذ بقضم الموزة لقمة لقمة حتى تشعر جميع حواسي بها، وما إن انتهيت منها منتشيا حتى وجدت أمامي قدمين طويلتين، رفعت بصري للأعلى لأجده ابن العم أبو أحمد وبيده خيزرانة طويلة.

اقتادني من ياقة قميصي المهترىء وجمع الناس حولي قائلا: هذا هو السارق يستحق الضرب المبرح، فمن يسرق بيضا يسرق جملاً!.

وقعت الخيزرانة بصمتها على كل أنحاء جسمي، ابن العم أبو أحمد توفي بعد عام تقريبا عندما كان عائدا من سهرة في إحدى الملاهي الليلية وهو ثمل، صدمته سيارة يقودها سكران آخر، كان قد اختلس نقودا من والده لينفقها على الغانيات، وسألت نفسي حينها: من يا ترى سرق البيضة؟.

أثناء انشغال الناس بجنازته وجدت دراجته مركونة بجانب الدكان المغلق، يبدو أنهم نسوها هنا، فاختلستها لأقوم بنزهة صغيرة، وأعيدها إلى مكانها كأنها لم تمس.

خروج من الذاكرة

هذا الرجلان لا زالا يثرثران بأشياء تبدو لي تافهة، لكنها يبدو سداة حياتهما ولحمتها. يتكلمان عن الراتب الذي يتبخر قبل أن يستقر في أيديهما، وعن المصاريف غير المنتهية والتي تنبع يوما بعد يوم ، كانا يحسداني على أنني أصبحت في العالم الآخر.

أدخلا المحفة إلى غرفة باردة، تساءلت إن كنت مازلت في ذات المكان، أم أنني انتقلت إلى القطب المتجمد.

فتحا بابا مربعا صغيرا، وسحبا منه صينية فولاذية طويلة، ثم حملاني من المحفة وألقيا بي فوق الصينية، دفعاها بعنف إلى الداخل المظلم، ألصقا على باطن قدمي ورقة كتب عليها: مجهول، وأغلقا الباب المربع.

كانت البرودة شديدة جدا، وتساءلت لمَ لم يفكرا بتزويدي ببطانية صغيرة.

مر وقت طويل في صمت موحش، لم أسمع خلاله نأمة صوت، وبعدها حدثت قرقعة وجلبة وفتح باب الغرفة.

- هل وضعته في الثلاجة؟

- نعم يا دكتور.

- أخرجاه الآن ومدداه على طاولة التشريح ريثما أحضر أدواتي.

فتح الباب المربع ودلف بصيص من النور إليّ.

سحبا الطاولة الفولاذية، وخرجت لضوء الغرفة الكاشف ثانية، واستغربت كيف لم تنبهر عيني بالضوء الساطع. أيقنت أن العبور نحو الضفة المقابلة للحياة إما أن يعطل الحواس، أو في حالة كحالتي يشحذها ويوقظها إلى أعلى درجة ممكنة.

مدداني على طاولة التشريح، وبدأ الطبيب في شق أنسجتي بدأ من مكان القلب. أحسست بأصابع ناعمة تساعده، فإذا بوجه أنثوي رقيق يساعد الطبيب، استغربت وجود هذا الجمال في المشرحة، كان الطبيب يغمزها خلسة كلما سنحت له الفرصة.

طلب من عاملي الإسعاف الخروج من المشرحة.

كان لديهما علبة صغيرة مبطنة من الداخل، اقتطعا قلبي ووضعاه هناك بعناية بالغة، ثم تحدثا بشأن الكليتين، وقاما بنهب قلبي، ثم شق الأنسجة وانتزعاها.

ومـن ثم خيَّطـا الأجـزاء المشـقوقة بسـرعة، وأغلقـا علبتهمـا، غادرت الجميلة وبقي الطبيب ليتم الخياطة، ويكتب تقريره عن ملابسات الوفاة.

شعرت برغبة في صفعه على وجهه، هذا الغبي الذي يظن أنني لا أدرك أنه سطا على جسدي، و احتز منه قطعا أثيرة إلي، كنت أريد أن أعرف عندما يوضع قلبي في صدر آخر هل سيحب ذات الفتاة التي أحببتها؟. هل سيكره معلمتي ووالدي وابن العم أبو أحمد؟

هل ستقوم كليتي بتنقية دماء إنسان آخر؟.

كتب تقريره: حدثت الوفاة في السابعة والنصف صباحا عقب سقوط من مكان شاهق، أحدث تمزقات في أنسجة الجسم الداخلية، تبعه نزيف داخلي، لا شبهة جنائية في الوفاة، يصرح بالدفن.

صرح بالدفن لأنه قام بسرقة أعضائي، بينما الجثث المجهولة الهوية تنقل إلى مشرحة كلية الطب للاستفادة منها بالأغراض التعليمية، لا يعرف هذا الطبيب أن والدي عمل فراشا في مشرحة كلية الطب!.

بجسدي المنهوب كانت سيارة دفن الموتى تسير نحو تلك المقبرة، للغرباء أعدت، ولست أدري ما هذا الغباء الذي اعترى من سَمَّوْها للغرباء، الراحل إلى عالم الموت يكون غريبا حقا دون اسم أو عنوان أو ذاكرة.

هناك أعدت حفرة على عجل وألقيت فيها بعد صلاة قصيرة وثلاثة مشيعين هم ممرضان من المشفى وحفار القبور.

أزيحت كومة من عظام وجمجمة بجانب القبر وسكنت أنا بجانبه، كنت الساكن الجديد الذي سيجاور هذه الكومة، هل يا ترى لديه ما يكفي من القصص والحكايات ليملأ بها الوقت الذي ينتظرني هنا؟.

أغلقوا علي القبر ومضوا.

كانت الثلاجة أكثر راحة لي من هذا المكان، هناك كنت أعلم أن في الجوار أحياء لم يقطعوا تذكرة الرحلة النهائية، وربما أعود لهم ، لكن هنا مع هذا العالم البرزخي..

تمضي الأيام هنا ثقيلة وبطيئة، لا يعطل سيرها الوئيد إلا تساقط المطر وتغلغله إلى جوف التربة، وبعض الطقطقات الخفيفة التي تند عن أمنا الأرض كلما احتاجت أن تتمطى وتتثاءب، أحيانا تأتي طقطقات نعال من يأتون لزيارة أحبائهم، وأنا لا زوار لي.

وقفت أمام شاهدة القبر المجاور، هي نفسها بنظارتها البيضاء الرقيقة، وحقيبتها الممتلئة بالكتب، ورفعت كفيها لتلاوة صلاة قصيرة، تأملت المكان ثم انتبهت إلى ماكتب على شاهدة قبري، وقرأته بصوت خفيض: يرقد هنا شخص مجهول مات لسبب مجهول.

أحقا؟ هل هذا ما كتب على قبري؟ أم أنهم أعدوا هذا القبر لحالة تشبه حالتي.

ما هي قصتك يا ترى؟ كم هي ظالمة هذه الحياة! أتيت ورحلت كأنك لم تحيَ قط، كأنك لم تأت إلى هذا الكون؟ هل يا ترى لديك عائلة في مكان ما من هذا العالم ينتظرون عودتك لهم؟ هل هناك طفل يناغي لهفتك الأبوية، أو زوجة يحدوها الشوق لحضورك الرجولي؟ بالرغم من التهشيم الذي أحاط بجسدك الملقى على أرضية حديقة ذلك المبنى، إلا أنه لم يفقدك الجاذبية ،كنت أحس في عينيك نصف المغمضتين كلاما كنت تود أن تقوله قبل أن توقع أوراق الرحيل لكنك لم تبح به،كيف مضيت دون أن تقول كل ما لديك؟ ما هو حالك في غربتك هذه؟ دون وداع رحلت ودون استقبال وضعت هنا؟.

جلست القرفصاء ووضعت زهرة قرنفل بيضاء في التربة، كان التراب جافا، فأخرجت من حقيبتها زجاجة ماء صغيرة ورشتها على التربة كي ترتكز القرنفلة فيها.

تنسمت عبيرا جميلا، تمنيت لو أنني احتضنتها، تململت في مرقدي.

تصوري يا عزيزتي أنني هنا طعام للدود بما تبقى من جسد انتهبته مشارط الطبيب.

جانبي الأيسر حيث القلب المنزوع تعفن تماما. لكن فخذي الأيمن ما زال سليما، وقد تعجبين إذا علمت أن جمجمتي أضحت نظيفة تماما بعظمتها المتعددة الفتحات وأصبحت وجمجمة إنسان بكين سواء.

أراك الآن تلملمين ذاكرتك ودموعك مودعة هذا المكان، وأصدقك القول إنني ضقت بهذا الجسد الذي غدا طعاما للدود، مللت من هذا الضيق والعفن والظلام وسأمضي أنا أيضا خارج هذا المكان.

انتظريني لحظة واحدة لأجمع شتاتي من هنا وأرافقك، قوديني ثانية إلى عالم الأحياء.

لأول مرة منذ أعوام طويلة اكتشفت أنني بهذه الخفة وحرية التنقل، لست محتاجا لطعام ولا كساء ولا وسيلة تنقل.

أستطيع أن أخترق هذا الباص المار وأعبر الشارع دون أن أخشى شرطي

المرور، أو السيارات المسرعة التي يقودها مراهقون لا يقدرون نعمة الحياة خارج إطارهم المترف.

أستطيع أن أستمتع بالمشي تحت وابل المطر المتهاطل دون أن أخشى البلل أو أتجنب مرور عربة مسرعة تغمرني بالمياه الآسنة.

كان البناء الذي قادتني إليه ذات النظارة الرقيقة والتنورة القصيرة واقعا في حي متوسط من أحياء المدينة، من يسكنونها ليس عليهم أن يقلقوا بشأن أمور صغيرة كالتي تحتل كامل تفكير الفقراء، ليس عليهم أن يفكروا بالكسرات الجافة التي

يريقون ماء وجوههم لتكون على مائدة عشائهم. ليس عليهم أن يقلقوا بشأن المرض والحياة على الشفرة.

يعتبرون أنفسهم ما بين بين، ولديهم متسع من الوقت للبحث عن الثراء والانتقال إلى الطبقة الاجتماعية الأعلى.

هل عدتِ يا رؤى؟.

انبعث من قلب البيت صوت ذكوري أجش.

هي رؤى إذا؟.

لكن هذا البيت بعيد جدا عن البناء الذي سقطت به، ألم تكن هناك في صبيحة السقوط الذي اعتقدت أنه الأخير؟.

والد رؤى رجل في الخمسينات من عمره، يقبع بين تلال من الكتب مفتوح أغلبها على صفحة معينة، وهو ينتقل بينها بعين باحث، تماما كعيني ابنته، وهما تستقصيان الحقيقة.

رؤى اتجهت نحو المطبخ مباشرة، وبدأت في ترتيبه من الفوضى العارمة التي تغمره، واستمرت تحادث والدها بصوت عال:

- كيف هي والدتك؟.

- كالعادة متعبة، وتحس بالخمول، إلا فيما يتعلق بكراهيتك، فهي تتميز بنشاط خارق. وأخشى أنها في الزيارة القادمة ستمنعني من العودة إلى هنا. تعتقد أن لديك عشيقة تأخذ منك كل اهتمامك.

- وهل أخبرتها بالحقيقة؟.

- وصفت لها جمال العشيقة الخارق وتعلقك بها، وأنكما قد تعلنان الزواج قريبا.

- يالك من ماكرة!.

رؤى تعيش بين بيتين، وهذا يتيح لها قدرا من الحرية في البحث عن الألفة والروابط الإنسانية المفقودة، فهي لا تعتبر بالنسبة لأمها سوى أداة ضغط على والدها، ولا تعتبر بالنسبة لوالدها سوى مرتكز مرتقبٍ في أيام الشيخوخة.

رافقت رؤى في الصباح التالي إلى حيث تتلقى تعليمها، هي في ذات الجامعة التي درست بها، تدرس نفس الاختصاص في

كلية الإعلام والصحافة، دخلت بخطوات واثقة أنيقة إلى المدرج لحضور المحاضرة، وفتحت دفترها الوردي لتدون فيه ملاحظاتها، وتستمع بانتباه وشت به عيناها وراء نظارتها الرقيقة.

ورقة

انتبهت إلى حذائي البالي وبنطالي المهترىء عندما جاوزت باب الكلية.. كان الطلاب يرفلون في مظاهر الأناقة والثراء وكنت في كل مرة أحسب خطواتي وأخشى أن يفتح حذائي فمه الكبير في الخطوة القادمة.. لم أملك دفترا من قبل وقد اعتدت أن يحضر لي والدي من مشرحة كلية الطب التي يعمل حارسا لها بعض الأوراق المعدة للإتلاف وكنت أدون عليها دروسي وملاحظاتي.. لم أمتلك ترف شراء دفتر بجلدة ملونة إلا عندما عملت في الصحيفة ولم يكن سوى هدية من زميلة مترفة اعتقدت أنني سأضع دفترها في رف مميز لمكتبة افترضت وجودها في بيتي ولم تعلم أنني لم اقتن مطلقا سوى كتب المكتبات العامة جميعا حيث كنت أول من يدلف إلى المكتبة وآخر من يخرج منها..

خروج من الذاكرة

قابلت رؤى ذلك الشاب الأشقر بفرح ظاهر يشي بعلاقة وثيقة بينهما وتأبطت ذراعه في ثقة ومضيا معا.. وصلا إلى باب بناية فارهة وارتقيا سلالمها الرخامية.

شعرت بالحرج لأنني أطلع هنا على ما لا يجب الاطلاع عليه فغادرت الشقة وانطلقت نحو الشارع.

بائع اليانصيب الكهل الواقف على ناصية الشارع ينتظر من يشتري منه البطاقات الثلاث الأخيرة ليمضي إلى بيته.. الذي فقد دفئه منذ غادرته تلك الرفيقة إلى عالم آخر.. تلفتت حولي فربما وجدتها أيضا ملت من مهجعها وخرجت تتجول مثلي... استللت من جيب رجل يبدو عليه الترف الشديد نقودا، وضعتها في جيب الكهل وطيرت الورقات الثلاث في الهواء لتحط في تجمع مياه آسن، انتابه الفزع من ضياع ورقاته الثمينات فسقط بلا حراك على الرصيف!.

هذا البناء الشاهق المترف يقف أمامي متحديا، لطالما وقفت في مدخله ممنوع عليّ الصعود إلى شققه الفارهة الأنيقة... تبعت رجلا عليه مخايل النعمة و الثراء بمعطفه الكشمير وقبعته المحاطة بالفرو الفاخر وحقيبته الكبيرة المستطيلة...كان يرتقي الدرج بصلف وكبرياء كما لو كان الخلد طريف في مملكة أزهار موريس كاريم[1] وعندما توقف أمام بابه وأخرج مفتاحه فوجئت أنه ذاك الصحفي اللامع.. قرأت له عن المشردين والمنكوبين والطبقة المسحوقة من المجتمع... انتضى قلمه للدعاية للاشتراكية الشيوعية، كل بحسب قدرته ولكل بحسب حاجته.

أراك الآن في غرفة نومك المحاطة بالأبهاء والجمال.. تشعل سيجارا كوبيا يكفي ثمنه لإطعام عشر عائلات لمدة شهر كامل.. لا ألومك يا عزيزي فمذاقه مذهل فعلا طالما مرت

[1] - موريس كاريم (Maurice Karem) روائي بلجيكي ألف بالفرنسية رواية مملكة الأزهار.

أوراقـه علـى أفخـاذ العـذراوات الصـغيرات.. القـرف الـذي اجتاحني إزاءك جعل الشارع في نظري أجمل وأكثر ثباتا.

عبرت الشارع مسرعا.. صدمت سيارة مارة على مهلها.. ولم التفت ورائي لأجد ما حل بركابها عندما اخترقتها لكنني سمعت زعقات ركابها المذعورين.

وقفت أمام واجهة أحد المحلات..اصطفت على رفوفه ألعاب الأطفال الزاهية الألوان..لمحت طفلا يخترق الألعاب ويتقافز من لعبة لأخرى دون أن يعبأ بصاحب المحل.. أيقنت أنه في ذات الغرفة الزجاجية التي أطل منها على العالم.

هـذا البنـاء ذو الواجهـة الكالحـة.. صـفراء اللـون بفعـل تـراكم الأتربة والغبار فيه شيء يستفزني لأستطلع ما بداخله..موسيقى البيـانو الصـداحة تشـدني...علـى مـا أعتقـد هـذه المقطوعـة لشوبان.

غير لائق مع عازف بيانو اختراق حائط بيته. هكذا فكرت. ضغطت زر الجرس...فتح الباب كان نحيلا شاحبا لدرجة أنني

استطعت رؤية عظامه وأحشائه...تلفت يمينا وشمالا ليرى من الطارق.. تأكد من خلو المكان.

هز كتفيه في لا مبالاة حزينة، ارتد داخلا......

كانت هناك قطة بيضاء وديعة تنام على خشب البيانو المهترىء.. عاد إلى كرسيه المستدير الصغير ثم بدأ في العزف ثانية. أصابعه طويلة ودقيقة، تتحرك برشاقة على مفاتيح البيانو السوداء والبيضاء، لحنه الذي عزفه كان شجيا فعلا...

انتابتني رغبة شديدة في الاستلقاء.. بحثت بعيني عن مكان في هذا البيت المقفر فلم أجد سوى أريكة متهالكة نخر السوس خشبها، وتمزقت خيوط نسيجها في عدة أماكن ليظهر حشو الأريكة المصفر كعجوز مخبولة نشرت شعرها الأشيب في يوم عاصف، والتقت عيني بمكتبة تنوء بما تحمله من كتب وأسطوانات وجرامافون نحاسي صدئ.

خزنت الألم في داخلي كما يخزن مدمنو القات حتى الوصول إلى نقطة الخدر خرجت ثانية إلى الشارع. وعدت إلى ذك

البيت الأنيق لكن رؤى كانت قد رحلت.. تتبعت خطاها وأنا لا أدرك سر تعلقي الغريب بها وقد رفع عني حجاب الماضي وامتلكت المستقبل بردائي الأثيري. عدت أدراجي إلى بيت والدها لكنني لم أر أثرا لها.. لا بد أن رؤى الآن لدى والدتها في ذلك البناء الذي سقطت من أعلاه السقوط الذي اعتقدت أنه الأخير.. لم تطاوعني نفسي بالانتقال إلى ذلك المكان الذي يحمل ذاكرتي السيئة.

إلى أين سأمضي؟ هل سأظل أضرب على غير هدى في هذه الأماكن؟ أن أعرف ما الذي يدور في جعبة الآخرين تجربة مثيرة ولعبة مسلية لكنها مع الوقت تصبح مملة.

كيف لم أفكر بهذا من قبل؟ كيف أضعت الكثير من الوقت بالتسكع مع أنني الآن بالتحديد أستطيع أن أكون بجانبها دون خوف؟.

لابد من التوجه حالا إليها... كيف سأعثر عليها؟ لا بد أن يقودني شيء ما إليها... ربما عطرها أو ذبذبات صوتها أو..

لابد أن أمضي إلى الأماكن الأولى فهناك كثير من الإجابات لتساؤلاتي.

مضيت إلى ذلك البيت العتيق حيث اعتدنا أن نلتقي يوما، تتدلى ياسمينة على حائط البيت...كان مظلما وحيطانه مهترئة.. بابه آيل للسقوط. دخلته كان لا يختلف عن القبر الذي كنت فيه إلا انتصابه فوق الأرض. فيه التمست بعضا من شذاها الذي خلفته في ذاكرتي وبدأت أدخل البيوت المجاورة بيتا فبيتا علّي أعثر على ما يطابق الرائحة.

جلت نصف المدينة باحثا عنها ثم نصف المدينة الآخر، ولكنني لم أيأس، أملك الآن اتساع الزمان والمكان؟.
كنت أقطع المسافات بسرعة الضوء.. أرتطم بأشخاص كثيرين دون أن أوذي أحدا.
أحلق في الفضاء حينا وأمشي حينا وأستقل قطارا في أحيان أخرى..

ذات صباح في تلك المدينة المقبرة القابعة في صفرة صحراء تشيع اليباس حتى في وجوه أصحابها، وجدتُها.

كانت تجلس على كرسي كبير في شرفتها الزجاجية الملأى بالاخضرار المستورد، تمد قدميها المتورمتين على وسادة.. انتفاخ بطنها والرجل الذي قبلها قبلة الصباح قصَّا لي الشطر الآخر من الحكاية.

أتسمعين صوتي؟ أنا أقرب إليك منه الآن، أحس صهد أنفاسك الثنائية، أنا بلا أنفاس ولا صوت ولا رائحة..

كنت تميزين صوتي مهما اختلط مع أصوات أخرى وتقسمين أن لي رائحة لا يملكها غيري.. وتزعمين أنها تستدعي إلى ذهنك رائحة مزارع الدراق.. أتذكرين؟.

ورقة

عنـدما جلسـت علـى تلـك الطاولـة المنزويـة في المطعـم القـديم..كنت تتصنعين الـدمع والحزن.. قذفت بقرارك الأخير في وجهـي وأعـدت لي رزمـة الكتـب تلـك حيـث نامـت بـين طياتها زهور مختلفة الألوان والأنواع مجففة يابسة.

كـل زهـرة كانـت موعـدا وحكايـة وخصـاما وصـلحا.. ببسـاطة شديدة أعدتها لي وأنهيت كما أردت فصلا من الحكاية.

صرحت أنـك تريـدين هـذه الحيـاة الوادعـة المسـتقرة مـع زوج وأبناء لم يستطع فقري الشديد ولا حياتي المضطربة ولا انتمائي السياسي والوطني تأمينها لك.

أعرف أنك صبرت طويلا وانتظرت طويلا لكنك في آخر الأمر حزمت أمرك على أن تكوني الأكثر عقلانية وواقعية.

خروج من الذاكرة

أراك تستنشقين عبير تلك الزهرة بعمق ولا تعرفين أنني ضيف العطر فقد سألته أن يكون جواز مروري إليك.. أسبح في مجرى تنفسك وأصل إلى حمرة قانية حتى ذلك المكان.. أثثت فضاءاته الدافئة جيدا منذ شهور عدة ليحتوي تكويننا يستمر شهورا أخرى.

فوجئ ذلك المتكون داخلا بحضوري... سألني في هلع:

- كيف دخلت إلى هنا؟. هذا المكان لي أنا فقط. كان الرعب باديا في عينيه.

- اسمك ؟

- لا اسم لي بعد.

- إذا كنت لا تملك اسما كيف تدعي ملكية مكان؟.

- وجدت نفسي هنا في هذا المكان ولا أعرف لي غيره.

- غن لي أغنية.

- ما معنى أغنية.

– حتى هذه لا تقفه معناه ؟كيف تحتل هذا المكان إذا؟ أنت لا تستحقه.

– لكنه لي.

– قاومني أن استطعت.

بدأت أمطط أطرافي فبعد عناء هذه الرحلة لابد من راحة.

تضاءل المخلوق الصغير في زاوية من التجويف.

كنت أضيق عليه الخناق وينزوي أكثر في زاوية تصغر وتصغر.

كنت أحس به يدفعني لكنه كان يضعف شيئا فشيئا.

غفوت قليلا وعندما صحوت كان قد خرج مع أنفاسها إلى غير رجعة.

هاهو المكان لي بالكامل هنا أستطيع أن أكون تكوينا من تكوينك دون أن تستطيعي رفضي.

هي علاقة شائكة بلا جدال وتحتاج للكثير من التفسير لكنها الآن صارت حقيقة واقعة.

صحيح أن المكان هنا مظلم.. يداي مكتوفتان.. وساقاي ليستا لي.. لكني أشعر أني أملك حرية لا يملك مثلها عاشق.. ولن يقدر عليها سواي.. دعيني أخبرك شيئا:

أنا الآن أغتذي من دمك.. أكل من طعامك وارتشف قهوتك التي طالما

شربتها معك من ذات الفنجان...كنت ترسلين تلك الضحكة في هناءة

ويقين من يدرك أنه امتلك الكون بقبضة يده.

كان يقينا وغرورا وتباهيا بجمالك الذي لم يذهب بروائه مرور الوقت.

ولكن الآن قهوتك تأتي مالحة بطعم الدموع التي تذرفينها كل صباح؟ أعرف أني لن أقدر بعد الآن على أن أتخيلك معشوقة لي.. وسأعرف حينما تلدينني.. بأني ولدتني حبيبتي التي صارت الآن أمي... لكني ما تمنيت الحياة ثانية لولا وجودك..

سأعدك بأن أكون ابنا غير شقي. سأعدك بأن لا تحل بك لعنة ما إذ غدوت منذ الآن ابنك بعد أن كنت حبيبك..

هذا النهار كان طعامك سيء المذاق.. لم أستمتع به، رفست جدار البطن تنبيها لك.. أشكرك أنك قدرت هذا فكافأتني بقطعة من حلوى غيرت المذاق الآسيوي الحار.

كنت أستمتع بالاسترخاء في هذا التجويف برغم ظلمته سحابة النهار لكنني أحس بانقباض قلبك عندما يحين موعد عودته مساء.. أراه كثير الصراخ والشجار والغيرة.. وفي غالب الأوقات يكون ثملا .. يضربك. ثم في الصباح يطبع قبلة على جبينك تتناسب مع أناقته وملابسه الفاخرة .. أحس برغبتك في التقيؤ أو حتى البصق في وجهه ولكن تسكتين من أجل هذا القابع في أحشائك..

أدرك الآن انك تعلقين آمالا كبرى على ولادتك.. تعتقدين أن بإمكانك أن تشغلي وقتك بطفل تكرسين له وقتك واهتمامك

وتهربين إليه من الكآبة التي تحيط بك في كل مكان ومن الإهمال الذي تشعرين به رغم كل الرفاهية.

رأيت الملابس التي طرزتها استعدادا للولادة والسرير المزركش، ورافقتك إلى مراكز التسوق الكبرى لانتقاء الأجمل والأغلى ثمنا..

ما كنت لأحلم بجزء يسير من هذا لطفلي الذي وضعته زوجتي ميتا.

ورقة

كان الطبيب يشرح لها أنها يجب أن تتغذى جيدا ليكون حملها سليما معافى وله القوة على الخروج إلى نور الحياة.

ولكنها استحت أن تخبره أنها أياما عديدة لا يتاح لها تناول حتى كسرات الخبز الجافة.

فكيف لها أن تطلب غذاء صحيا متوازنا كما ينصح.

كانت قد نحلت وهزلت بعد الحمل أكثر مما كانت عليه قبله وإيقاف مرتبي الذي قام به مدير الصحيفة ضدي كإجراء احترازي ضد علمي بمؤامرات يديرها ومعاملات تمرر من تحت الطاولة، ورفض أهل قريتي لهذه البنت القادمة من المدينة كانت عوامل آزرت بعضها بعضا لتقضي علي وعليها.

وحين واتاها المخاض العسير كانت قد ذبلت.

في سيارة الإسعاف تلك أمسكت بيدها. أحست أنها لحظاتها الأخيرة... ودعتني بعيونها ولكنها كانت ملأى باللوم والعتاب.

وقضت قبل أن تبلغ المستشفى مع جنينها.

خروج من الذاكرة

بدأ المكان يضيق شيئا فشيا، والتصقت عيني بجدار المكان العاتم فلم أعد أستطيع الحركة وغامت الرؤية حتى تحولت إلى سواد.. فعماء.

أي تفكير مجنون قادني إلى هنا؟ كيف حشرت نفسي في هذا الضيق بعد أن كان لي الفضاء برحابته؟.

لم يعد لدي من مجسات الاستشعار لما يجري خارج المكان سوى الصوت.

أسمعك تتكلمين أحيانا، تتشاجرين أحيانا كثيرة، باكية دوما سمعت شكواك لأمك عبر الهاتف:

-أماه، أرجوك ساعديني.. تعالي إلي فانا أحتاجك إنه يضربني ويذلني دوما.

- ....

- أقدر انك مذ بعتني لهذا الثري نسيت أن لك ابنة وكرست كل حياتك لابنك فقط.

- ....

- أرجوك لا تغلقي الخط في وجهي... أمي.. أمي الو

تمنيت عندها لو أني كنت الفراش الذي ارتميت عليه باكية.

أحسست بزلزال هزني و قلبني رأسا على عقب.

نمت قليلا أو كثيرا، أسمع صوت محركات السيارة.

كنتِ ممددة في سيارة الإسعاف وطنين الأجهزة الطبية يصم الأذن.

أحس بشيء يلتف حول عنقي يكاد يخنقني ،تخرج أنفاسي بصعوبة لم أحس مثلها لدى سقوطي. ضوضاء وجلبة وصراخ الأطباء:

- واحد.. اثنان.. ثلاثة

ارتجاج آخر ثم ثانية صوت الطبيب:

- ناولني مشرطا، المقص من فضلك.. فقدت الكثير من الدم... علقوا لها كيسا آخر من الدم..راقبي المصل أيتها الممرضة... النبض لا يزال ضعيفا...هاهو ..

كائنات تمشي على الجدار من الخارج كدبيب رتل مليوني من النمل، أحس بأصابع تلتقطني تحاول أن تزيل ما طوق عنقي ينداح الماء الذي يحيط بي وألامس الهواء من جديد نور ساطع يغشى المكان ضاقت الحدقة لتستوعب هذا الضوء، قشعريرة تعتوربي، ثمة ما يعتصرني ويدفعني للبكاء.

– حمدا لله ...الطفل بخير ومؤشراته الحيوية جيدة.

إذا فقد خرجت إلى النور!!.

أيد ناعمة رقيقة سكبت ماء دافئا على جسدي الصغير ثم وضعت القماطات والأربطة المطرزة، وضعت في مهد وثير، هاأنذا أخرج لحياة أخرى بتكوين جديد..بانتماء لكِ لا يمكنك التملص منه أبدا.. أتوق لمعرفة الاسم الذي ستناديني به.. سيرضي غروري وكبرياء العاشق القديم أن تسميني ذات الاسم..

قليل أو كثير من الوقت، اقتحم سريرك الغرفة...كنت منهكة شاحبة.. مابين الخدر والإفاقة..

حانت منك التفاتة إلى المهد وابتسمت ابتسامة واهنة:

- هل اتصلتم بزوجي؟.

- نعم يا سيدتي إنه في الطريق إلينا.

- هل أستطيع أن أراها عن قرب؟.

جلت بعيني الصغيرتين في الغرفة باحثا عن التي سألت عنها..اقتربت الممرضة مني وحملتني:

- ما الاسم الذي اخترته للطفلة يا سيدتي؟.

- ندى.. أحب هذا الاسم كثيرا.

التفتت الممرضة إلي بوجه باسم وضحكة غبية:

والآن يا ندى الجميلة مرحبا بك في هذا العالم.

أحببت صفاء الأنوثة ورقتها عندما كانت أنوثتها هي، لكنني الآن في قالب لا يناسبني.. جميل وبغيض في آن معا.

وضع المهد بالقرب من سريرها..يمكنني الآن أن أرى وجهها عن كثب.. كان صافيا رقيقا لكن الحزن حفر فيه عميقا..خرجت الممرضات من الغرفة..

-ندى، أردتك أن تكوني ذكرا لتقتصي لي من مجتمع ظالم وأسرة لا ترحم.. أتيت بك لهذا الشقاء.. أريدك ألا تكونيني... كوني مخلوقا لا يرتكب أخطائي.. ربما هكذا ترسمين خلاصي ولو بعد حين..

فتح باب الغرفة فجأة وحضر "والدي" مكفهر الوجه تبعه رتل من الممرضات كن يتمسحن به عسى أن ينلن من بركاته.. أخرج رزمة من النقود وبدأ توزيعها في حركة استعراضية ممجوجة.. كان يريد أن يبدو فرحا بمولودته الأولى.

– حمدا لله على سلامتك ومبارك لنا ابنتنا.. تهنئة لم تخرج من قلبه وشت بها نبرات صوته الأجش وأسلوبه الجاف..

– أسميتها "ندى" هل يعجبك هذا الاسم؟

– لا بأس.. ليكن ندى.

كانا يتناقشان في الاسم كما لو أنهما المعنيان فقط.

كنت أريد أن اصرخ: هذا الاسم ليس لي، لا يشبهني لكن عضلات لساني لن تطاوعني قبل وقت طويل وعندها سيكون الاسم أشد التصاقا بي.

رن هاتفه الجوال أخرجه من جيبه، انتبهت لعدد الخواتم المحيطة بأصابعه والتي تحوي أحجارا كريمة..

-ماذا تقول؟ لا أصدق! البارحة كانت المؤشرات في صعود... كيف هبطت هذا الهبوط المخيف؟! لابد أن تتأكد من هذا.. اتصل بي حالما تحصل على جواب أكيد.

جذب كرسيا وجلس عليه في ضعف..وضع رأسه بين يديه وبدأ في التفكير.

رن الهاتف ثانية ليؤكد له أنه قد خسر ما كان قد اشتراه من أسهم في البورصة.

تهالك على كرسيه كلاعب كرة قدم مهزوم أنهى للتو مباراته الخاسرة..

لم تكتفي هذه الخسارة بإفلاسي فقط وإنما زادت علي عبء تسديد القروض الكبيرة للبنوك.. لن أقوم أبدا بعد الآن.

كانت تلك الحبيبة تنظر بعين مليئة بالقلق لكنني أحسست في داخلها قليلا من التشفي.

وضعت في مهدي الحريري الوردي وحملتني الممرضة حتى باب المستشفى.. انتظرتني السيارة الفارهة والتي سأستقلها للمرة الأولى والأخيرة فهي أيضا ضمن ما ستحجز عليه البنوك لاستيفاء ديونها.

نعم يا صغيرتي لست أدري هل هو سوء طالعك الذي زامن حضورك مع هذه المصيبة الكبرى أم انك فعلا لست بزينة الحياة الدنيا.. بل مصيبة كبيرة؟

هل سأقدم لك ما يستطيع الآباء العاديون تقديمه لأبنائهم؟ هل سأقدر؟ أشك في هذا..

كانت الحبيبة أمي في حالة من الشتات فهي تارة قلقة لمستقبل هذه الأسرة الذي انهار وتارة تشعر بالشماتة .. شماتة

تارة منه.. من أمها.. من نفسها إذ تركتني سعيا وراء حياة مستقرة مريحة.

بسرعة كبيرة أتى موظفو الحجز واستولوا على كل ما في البيت من أشياء وأثاث ومقتنيات ثمينة وفاخرة.

أحمد الله أنهم تركوا لي ملابسي ومصوغات أمي الذهبية فعليها الاعتماد في الأيام القادمة.

بدأت للمرة الأولى من حياتها معه ترفع صوتها في وجهه وربما تصرخ عليه بعنف وعصبية وهو كان مستكينا بشكل رهيب.. لا ينبس بكلمة فيما هي تكيل له الشتائم واللوم الجارح.

وسريعا سريعا حزمت حقائبها المليئة بالملابس الأنيقة والحلي والحقائب والأحذية الفاخرة وملابسي الجميلة التي لم تحجز عليها إدارات البنوك.

الليلة السابقة عندما عاد ثملا كعادته استقبلته بذات الفتور وتظاهرت باللامبالاة في حين كانت حقائبها معدة في الشرفة للرحيل.

آثرت أن تتخذ هذا القرار لوحدها في حياتها معه بعد أن كانت مساحة حريتها الصغيرة تصطدم دوما بما يراه هو الأفضل و بقناعاته.

هو الآن مجرد من القوة التي امتلكها دائما بالرغم من أن غروره لم يزايله وذلك التعجرف الكاذب ما يزال سمة أساسية من سمات شخصيته.

تعبر قاعة المغادرين في المطار الدولي بخطى واثقة وجذلة وأنا في ذلك المهد الفاخر أحس باهتزازت حركتها...

كانت تبدو غير آسفة لمغادرة هذا البلد الغريب.. لم تشعر نحوه بأي انتماء أو محبة.

هذا الجسد الأنثوي الذي حللت به وهذه الكارثة المالية الكبيرة تزامنت مع موعد إطلالتي الثانية على هذا العالم.

وعدتك يا أمي الحبيبة أن أكون مصدر سعادة لك ولكن هذه الرياح التي عاكست السفن ليست من صنعي، وإنما هي

قدر كامن في علم الغيب.

تبدو لك ولي أحداثا جديدة وعاصفة، ولكن هذا الجديد إن تمعنا فيه جيدا لن يكون كذلك؛ فنحن قد عشنا ذات اللحظة في عالم آخر ولكننا ننسى لنمارس فن الدهشة عندما نراه ثانية، أو لنمارس الاستمتاع بدور الضحية المجني عليها ونحصل على مكتسبات الشفقة من الآخرين، وبالتالي نحصل على مبررات بقاءنا على قيد الحياة في زمن لا يعتقد إلا بنظرية البقاء للأغنى.

تعلن المضيفة أن موعد الرحلة المتجهة صوب الوطن قد حانت وعلينا الاتجاه نحو البوابة المخصصة لطائرتنا.

تحمل أمي الحبيبة حقيبتها وتصلح من هيئتها التي أفسدها الجلوس على مقاعد الانتظار، وتتجه خطوة خطوتين ثلاثا دون أن تحمل المهد.

أعرف ما يدور في رأسها.. تريد أن تتخلى عن هذا العبء الذي يربطها برجل لم تحبه يوما، في قاعة مطار!.

تقف مترددة.. تقدم رجلا لتعود وتلتقطني وتؤخر أخرى للحاق بطائرتها.. ينطلق صراخي محرجا إياها براكبة مرت بالقرب منها: هل نسيت مهد الطفل؟.

تعود وتلتقطني وفي نفسها تلعن حياتها وحظها.

وضعت المهد على الكرسي المجاور لها من اليمين، وعلى يسارها يجلس رجل أنيق جدا، رائحة عطره الثمين تفوح في أرجاء الطائرة ووجه أليف جدا. يتبادلان تحية مقتضبة وتفتح جريدتها لتقرأ فيها اللاشيء، فهي كانت تتشاغل بها دون هدف محدد.

تربط أحزمة الأمان و تقلع الطائرة.. يبدأ معها الرجل الأنيق حديثا وديا بسؤاله عن وجهتها لتكتشف أنه يعيش في ذات المدينة التي احتضنتها طفلة وامرأة.

وجهه المألوف بالنسبة لي إذا لأنه واحد من أهل مدينتي يحمل ذات ملامحها ورائحة عرق أهلها ولون دمائهم المنعكس على لون بشرتهم.

يبدآن حديثا طويلا جديا يتناول في بعض الجوانب منه دقائق من حياتهما بقصد أو دون قصد.

ما الذي يجمع مسافري المسافات الطويلة على مائدة البوح؟.

عندما تحتويهم المسافات لا يجدون بديلا للقضاء على قلقهم إلا ممارسة هذا الطقس الغريب، البوح بكل مكنوناتهم وكأنهم يخافون أن يكون سفرهم متجها نحو الموت، الأغرب هو حال انتهاء الرحلة تنتهي هذه الحميمية ويُنسى هذا البوح كأنه لم يكن، مهلا.. لا يختفي نهائيا ولكن تأخذه الذاكرة إلى أرشيفها المخفي لتعيد نسجه ثانية ذات سفر.

كانت تحكي في تلقائية وطفولية افتقدتها لديها مذ أعادت لي الكتب والرسائل وزهوري المجففة.

وكان هو بالمقابل يحكي في حدود اللياقة والأدب والـ " اتكيت" مما يشي بأصوله البرجوازية ...

في سرها.. قد تكون غبطت نفسها لتحظى برفقة رجل ليس

من محدثي النعمة كما هو زوجها، ولا هو من الطبقة الفقيرة حاملي القضية.

ليس هناك أسوأ من رجل فقير إلا رجل فقير صاحب قضية والأسوأ منهما هو محدث النعمة بلا قضية إلا كيفية زيادة ثروته.

ساعات ثلاث استغرقتها الرحلة ليعلن قائد الطائرة أنها ستحط بعد دقائق على أرض الوطن.

أعيد ربط حزام الأمان حول مهدي.. أحسست بارتعاشه يديها وهي تربط الحزام حولي.. في هذه اللحظة وضعت أمام مواجهة الواقع.. ماذا ستخبر أمها.. لم عادت؟ فيمَ عادت؟ كيف ستعيش في هذا البلد؟

في هذه اللحظة انتبه الرجل الأنيق للمرة الأولى أنني موجودة في مهد صغير فتساءل بلطف: هل هو صبي أم بنت؟.

- بنت.

- ما اسمها هذي الحلوة؟.

- ندى.

عرفت في هذه اللحظة أنني حظيت بوجه أنثوي جميل واستيقنت إنني ما سمعت وصفا لشكلي قبل الآن منذ أن وضعتني أمي الحبيبة في المستشفى.

اكتشفت أنها لم تناغيني كأم فرحة بمقدم فلذة كبدها ولم أحس بفرحتها التي

كانت تغزوها بين الحين والآخر أثناء الحمل وأثناء تحضير مستلزمات الولادة.

غادرنا الطائرة لكن ثقة خطواتها تراجعت كثيرا.

سألها رفيق رحلتها:

هل هناك أحد ينتظرك في الاستقبال؟.

لا.. أتيت دون أن أخبر أحدا.

هل تسمحين لي أن أوصلك إلى بيتك؟.

لا بيت لي.

إلى أين إذا؟

بيت والدتي.

أوصلك إذا؟.

سأطلب سيارة أجرة لا أريد أن أتعبك.

قالت الجملة الأخيرة بوهن وببعض من دلال حدثت نفسها:

ربما أحتاجه في القادم من الأيام فلأدعه يوصلني إلى عنوان سكني.

وضعت حقائبها في السيارة الفارهة وانتظرت حتى يفتح لها السائق الباب فقد تعودت هذه الحياة الارستقراطية فنحن نتعود على الرخاء بسرعة كبيرة.

جلست في السيارة ووضعت المهد الذي أحتله أنا بجانبها فيما جلس هو قبالتها.

قدم لها بداية بطاقته الشخصية طالبا منها أن تتصل به عند الحاجة.. فيما اعتذرت هي عن إعطائه رقم هاتفها لأنها

ببساطة لم تمتلك هاتفا بعد.

عبرت السيارة ذات الطرقات التي درجنا فيها أطفالا وشبانا تلامذة وعشاقا آباء وكادحين، اختبرت هذه الطرقات منا كامل أطوار حياتنا.. لم تكن بهذا التنظيم ولم تكن تحيط بها هذه البنايات الشاهقات.. آخر مرة مشيت بها كنت مفتونا بحالة الأثيرية والقدرة على اختراق الأشياء فلم أعرها انتباهي إن كانت هذه التبدلات قد طرأت حينها.

ولأكون صادقا في قولي لم انتبه يوما على طرقات مدينتي وبناياتها... كنت مشغولا دوما بأشياء أخرى فرضتها علي ولادتي في بيت موظف بسيط يعمل حارسا في مشرحة كلية الطب.

لم تشفع لي قراءاتي ودراستي لأرتقي درجة أخرى من سلم الحياة الاجتماعية فيها.. في مدينتي هناك فوارق لا يجوز لك أن تتخطاها.. لا يجوز لك أن ترفع رأسك للأعلى أو أن تلتفت

حتى يمنة أو يسرة، ولا تعطيك فرصة أن تطمح للأفضل؛ فليس ثمة باب سيفتح لك...

ربما سألتمس لها العذر بهجراني تلك الحبيبة؛ ففي مدينتنا يفرض عليك اختيار السلوك المناسب للمدينة وليس للحياة ذاتها.

في داخل السيارة كان هناك حديث صامت يدور بينها وبين الرجل الأنيق.. كنت أستطيع فك شيفراته فهو عبارة عن إعجاب كبير من طرفه، وإعجاب من طرفها ممزوج بتوهم أن يكون قشة تتشبث بها في غمار ما يعصف بحياتها من رياح عاتية.

كانت تدير في رأسها سيناريو مفترض لما سيكون عليه استقبال والدتها وامرأة أخيها لها.

وصلت السيارة إلى باب المنزل وقام السائق بفتح الباب لها، فيما رافقها الرجل الأنيق حاملا المهد. قام السائق بحمل

الحقائب الكثيرة حتى باب الشقة.. ودعت الحبيبة ذلك الرجل واعدة إياه بالاتصال حالما تستقر ويتسنى لها الوقت.

عند باب الشقة وقفت أمها وامرأة أخيها وقد أخذتهما المفاجأة لهذه العودة غير المتوقعة لأمل.. امرأة أخيها ابتدرتها بالتقبيل والعناق فيما تناولت أمها المهد وحملتني بين ذراعيها.. كانت تنظر إلي بفرحة وعندما وقعت عيني في عينيها استغربتُ أن تكون هي ذات الأم التي كانت تملؤها الحسرة كلما حادثتها أمل بالهاتف وهي في تلك البلاد البعيدة... واستغربت أكثر إذ كانت هي نفسها المرأة التي حرمتني من أمل.

تركت أمل نفسها تستلقي على تلك الكنبة الأثيرة لديها والتي كانت تفضل الجلوس عليها في الماضي.. والتي تعودت، إن وجدت أحدا يجلس عليها، أن تصر على مغادرتها فتلك الكنبة "كنبتها". وهكذا أخبرتني يوما ما.

زوجة أخيها أحضرت الشاي على عجل، وقدمت لها طبقا من الحلويات ...كانت تثرثر بلا انقطاع وبأسئلة مختلفة..بينما الوالدة لا تكاد تنطق بكلمة أو كلمتين...كانت ربما تدير أسئلة حيرى عن سبب قدوم أمل دون سابق إنذار.

– لمَ لم تقولي أنك ستأتين؟كنت سأنتظرك في المطار على الأقل.

قالتها الأم بنبرة لا تخلو من العتاب والشك.

–لم أشأ أن أتعبك. ردت أمل بطريقة لا تخلو أيضا من العتاب والشك.

–كيف أنت والطفلة ؟ هل تستطيعين تدبير أمورها بنفسك؟.

– كانت المربية تساعدني في رعايتها فلم أجد منها تعبا.

– وزوجك ؟

– إن شاء الله قريبا يأتي.

قالتها ثم صمتت صمتا وشى بها.. ماكانت تتوجس منه الأم خيفة صار على مبعدة كلمة أو اثنتين...آثرت الاثنتان في

اتفاق صامت أن تغلقا الموضوع في هذا الوقت بينما استمرت زوجة أخيها بالثرثرة والكلام المتواصل..لم تكن من النوع الذي يخفي تطلعاته وجوعه الدائم لكل جديد.. أشارت إلى الحقائب الكثيرة.

– لست أدري إن كنا سنجد مكانا لكل ما في تلك الحقائب في خزائن البيت.

– لا تتعبي نفسك بها سأتدبر أمري..

كان جوابها مقتضبا وضع حدا للحوار لكنه نم عما يمكن أن تكون عليه العلاقة بين أمل وزوجة أخيها وربما عن تاريخ غير سار بين المرأتين.

– أمي هل استطيع أن ارتاح قليلا؟

كنت أنا مهملة ولا من يريد السؤال عني.. استمتعت بإهمالهم لي كي أراقب" أمي" و"جدتي" و زوجة خالي" والتعابير التي تنم عن صراعاتهم الداخلية.. كانت هذه الألقاب التي سأطلقها عليهم في مستقبل الأيام، مغلفا بأنوثة لم أتوقع أن أعيش في

قوقعتها، غريبة علي ولكن يجب أن أتعودها لأنها أصبحت جزءا من تكويني الجديد. الأمر هنا ملغز للغاية وأعتقد أنني حتى هذه اللحظة لم يكن لي حرية الاختيار في هذه المغامرة الغريبة حتى وإن توهمت أنني أفعلها بمحض اختياري.. ظننت في البدء أن دخولي هذا العالم الغريب قد يقوض نظرية (الكارما) التي اعتقدت بها في الزمن الماضي فقد عشت حياة بائسة لم تخل من المشاكل والصراعات والأخطاء ولكنني اخترت أن ادخل هذا الجسد الأنثوي وأعيش فيه ولطالما فكرت أن الأنوثة نعمة فكيف اظهر في جسد أنثوي ويكون هذا من باب العقاب لي؟ ولكن أليس من العقوبة أن تلدني حبيبتي أنثى؟ أم أن هناك في قادم الأيام ما سيغير الواقع؟. لا أملك سوى انتظار ما سيكون لأنني ولمحض إرادتي حبست روحي المحلقة في مسيرة حياة لا ادري كنهها وربما توهمت أن روحي كانت محلقة وربما كان أجمل ما في الحبس هو أنني لا أستطيع التنبؤ بما سيحدث في تتمة الحكاية.

في تلك اللحظة انتبهت زوجة الخال الثرثارة لي و شرعت في مناغاتي ثم أعلنت لأمل أنها ستعتني بي بينما تأخذ أمل قسطا من الراحة.

نظرت أمل لها بعين مستريبة ورفضت هذا العرض شاكرة، وحملت المهد ثم اتجهت إلى الغرفة في الجهة اليسرى فنبهتها أمها أنها نقلت غرفتها إلى الغرفة الصغيرة لتمنح الغرفة الأكبر لأخيها و زوجته.

بدت على وجهها علامات الاندهاش الممزوج بالامتعاض لكنها توجهت للغرفة الأخرى.. هناك وضعتني ثم استلقت على السرير بكامل ملابسها وغرقت في بكاء صامت أفضى بها للنوم.

زوجة خالي تيقنت أن ما يأتي من رخاء عن طريق أمل قد توقف تماما، فبدأت في تبديل طريقة معاملتها تدريجيا. وصار

ديدنها توجيه النظرات الغاضبة، ثم العبارات المتقطعة الملغزة، ثم الاتهامات الصريحة.

كانت امرأة من نوع غريب يملؤها الطمع، وتبحث دوما عن الفائدة المادية التي قد تجنيها من علاقتها بأي شيء يحيط بها .

في السابق كانت تحترم أمل وتكن لها مودة خاصة عندما كانت هناك كمية وافرة من الهبات التي تحصل عليها من خلال الهدايا الثمينة والأموال التي كانت تغدقها أمل وزوجها بلا حساب..لكن قدوم أمل بهذه الطريقة الغامضة وعدم اتصالها بزوجها وانقطاع الموارد المالية الوفيرة غير من وتيرة تعاملها معها بشكل كلي.. الغريب في الأمر أنها كانت تغدق عليَّ الدلال والمحبة بدون حساب وفي لحظات معينة كنت اشعر أنها فعلا تحبني كطفلة حرمت هي من إنجابها.

وكانت أمل تدعني بين يديها وتحت رعايتها لساعات طويلة اتقاء من مكر متوقع قد يحدث. أيقنت هذا بشكل جلي عندما نظرت في عيني أمل وهي تنقل البصر ما بين أمها وبيني وهي تحدج امرأة أخيها بنظرة غير مريحة.. هناك تاريخ غير سار بينهما على وجه التحديد، ولا بد أن ثمة ما حدث في الماضي زرع بينهما بذور كراهية غير معلنة، لكن الجدة تعرف قطعا فصولا منها.

هذا ما يزيد الإعجاب بشخصية الجدة، فهي تختزن الكثير من الأسرار، ولديها قدرة عجيبة أن تراها رغم نواقصها إنسانة مكتملة الحكمة وموفورة التجربة.. ومع هذا تستطيع أن توازن بين المرأتين بحيث تبقي هذه الحرب صامتة لا تتعدى أسوار النظرات الجانبية الغاضبة.

ما يشغل بالي هو كيف ستعاملني " أمي" في المستقبل؟ هل ستروي لي فصول الحكاية الحقيقية، أم أنها ستلوذ بصمتها كما هي العادة وتنهزم كما فعلت في الماضي؟.

أعود مرة أخرى وأقول ليس أمامي من مخرج سوى الانتظار لما تسفر عنه الأيام..

يوما بعد بدأت اكتشف شخصية جدتي أم أمل.. في داخلها عدة تكاوين متناقضة، ففي حين يملؤها الحنان في ساعات معينة.. أراها قاسية جدا وهي تحدج أمل بنظرات ذات مغزى غير طيب عندما تخرج من البيت وعند حضورها.. في بعض الأحيان تلك الجدة تبدو نفعية إلى أقصى درجة عندما تبدأ بتعداد فضائل زوج أمل وكيف أنها لم تحافظ على النعمة التي انتشلت العائلة من الفقر..

وفي صباح ممطر طلبت من أمل أن تجد عملا لأن ما لديها من مدخرات ليس معدا للإنفاق عليها وعلى ابنتها.. ومع أن أمل ذكرتها أن ما تملكه من مدخرات مصدرها حياتها البائسة مع زوجها الثري الذي تكرهه.

خرجت وصفقت الباب وراءها.. توقعت ألا تعود لهذا البيت مرة أخرى خصوصا أنها لم تبنِ علاقة وثيقة بي رغم بنوتها...

كنت أحس بفزعها الغريب عندما تنظر في عيني وكأنها أدركت من أكون.. وسمعتها مرة تقول لأمها:

ترعبني هذه الطفلة الغريبة..

عندها وبختها أمها وألقت عليها درسا طويلا في فضائل الأمومة وعلاماتها، وعندما دققت النظر في المرأتين وبحثت في تصرفاتهما لم أجد لديهما من مزايا الأمومة شيئا بينما تتمتع زوجة الخال ببعض منها أحيانا!.

بدأت تتلاشى أمام عيني أوهام الماضي، وعرفت لم يكون الحب ستارا لكثير من النواقص، وأدركت أن هذا هو بالضبط ما يحدث عندما يتزوج المحبين ثم يفضي بهم الأمر نحو الانفصال الغريب، والذي يثير استفهامات في أذهان المحيطين عندما يعقدون المقارنات بين الحب الكبير والانفصال الكبير..

لابد أن ما يجري على مستوى الأفراد يحدث أيضا على مستوى الشعوب والأمم والسياسات.

ورقة

هللنا كثيرا للوحدة المباركة وانطلقت الأغاني والأناشيد الوطنية من إذاعتي البلدين المتجاورين..كانت خطوة جبارة في وجه الهجمة العالمية الأزلية التي تشن ضد هذه البقعة من الأرض.. كنا نعتقد في حينها أن هذه اللحظة ستدوم قرنا كاملا لكن الصورة تحت المجهر تختلف عنها من غيره.. بؤر كثيرة تبدت للعيان عفونتها وأخطاء كثيرة ارتكبت.. وفي يوم آخر قريب حصل الطلاق أقصد الانفصال.. كان مفزعا ومؤلما لكن الكثيرين تنفسوا الصعداء تماما كالذي يمرض عزيز إليه من مرض عضال.. يتمنى بقاءه على قيد الحياة لكنه يتنفس الصعداء بموته لأن المريض ارتاح من آلامه، ولأنه أيضا تخفف من عبء التمريض والعلاج.

كثيرون اعتبروها نكسة ولكن الأكثر منهم اعتبروا هذه الوحدة هي النكسة لكثرة ما جرى من خلالها من هضم للحقوق وتجاهل لكيانات مقابل استعلاء كيانات أخرى.

خروج من الذاكرة.

عادت أمل في الظهيرة وجلست على كنبتها الأثيرة.. خلعت حذاءها ومددت ساقيها في إعياء تام.. بدت لي في تلك اللحظة جميلة جدا رغم أنها لم تكن قد اعتنت بأناقتها عند خروجها..

حضرت الجدة من المطبخ وجلست إلى المائدة المستديرة الموضوعة في طرف الصالة وبدأت في تقطيع البطاطا وهي تسترق النظر إلى ابنتها.. نظرت الأخيرة إليها ثم أشرق وجهها بابتسامة كبيرة ومنيرة لم أرَ مثلها منذ زمن بعيد جدا:

- أمي لقد حصلت على عمل جيد وسأبدأ منذ الغد..

نظرت الأم بريبة وحركت رأسها مستفهمة دون أن تنطق.

- نعم يا أمي هل نسيت أنني حصلت على شهادتي الجامعية منذ زمن؟ قد يكون المنصب الوظيفي كسكرتيرة غير لائق بي لكنه أفضل من لاشيء

خصوصا أن مرتبه يجعلني أسكت عن نواقصه لزمن طويل.

اندفعت امرأة خالي من غرفتها والتي كان من الواضح أنها تسترق السمع مهنئة أمي بحصولها على عمل خصوصا أن الأسعار في ازدياد مستمر وعمل خالي – الذي عرفته في هذه اللحظة– كسائق شاحنة ناقلة للبضائع لا يكاد يفي بمتطلبات البيت واحتياجات الأسرة.

تساءلت في هذه اللحظة عن الخال الغائب واستغربت أنني لم أصادفه مرة واحدة رغم أنني بقيت هنا شهرا كاملا وفهمت أنه يغيب شهورا كاملة ليعود يوما أو يومين وربما هذا هو السبب في القسوة الظاهرة في شخصية الجدة وامرأة الخال والصمت الثرثار الذي يدور بين نظراتهما...

ما قد تختلف عليه امرأتان بموقع الحماة والكنة قليل الحصول في هذا البيت، لأن المادة الأساسية للشجار متغيبة أغلب الوقت، أو ربما كان هناك شجار قديم حله الخال بالغياب الطويل..

زوجة خالي يبدو عليها الطمع ولا تقنع بالقليل، وهذا واضح في تصرفاتها التي لا تبذل جهدا لإخفائها، بينما الجدة لا تقل عنها طمعا وحبا للمال، لكنها تتشح بالمظهر الرصين تبعا لعمرها ومركزها وتربية قديمة تحمل بعضا من رونقها كسليلة لأسرة كانت ميسورة، وأضحت من طراز ارحموا عزيز قوم ذل.

ورغم أنها أحست بكثير من الراحة لأن أمل لن تكون عبئا ماديا عليها، بل ربما تجني من خلالها بعض الأموال، لكن اليقين الغريب بما دار في خلدها طوال شهر كامل حول عودة ابنتها المفاجئة وعدم تقديم أي تبرير مقنع لهذا اجتاحها بقوة هذه المرة بما لا يقبل أي نقض.

ولعل أمل تعرف والدتها جيدا؛ فقد ابتسمت بطريقة ماكرة زادت وجهها المتألق في هذا النهار سحرا وجمالا.

وقد بدأت أتعود هذا البيت الصامت الغريب الذي تدار فيه الأحاديث عن طريق النظرات ذات المغزى، ولا تكاد تسمع صوتا إلا الصوت القادم من الشارع

لكن أمل بادرت أمها بالقول:

ستزورنا سميرة هذا المساء يا أمي.. صادفتها صباحا وفوجئت بأني هنا ودعوتها لتزورني اليوم بعد انتهائها من عملها..

سكتت الأم ولم تعلق على ما قالت ابنتها، بينما اربد وجه زوجة الخال بطريقة غريبة وغادرت الصالة نحو غرفتها بحالة تغاير قدومها عند استراقها السمع.

ضحكت أمل ضحكة مكتومة وكأنها حققت نصرا كبيرا ثم قالت لأمها:

دوما تقفين في طريق الحب.. زوجتني إلى ذلك الثري وقتلت الحب بين أخي وسميرة لتزوجيه من هذه العنكبوت السوداء.

الجدة أيضا لم تعلق رغم الانزعاج البادي على وجهها، وهذه المرة الأولى التي أرى أمل فيها تتمتع ببعض القوة منذ قدومها، ومن قبل عندما كانت تحادث أمها في الهاتف ثم ترتمي منهارة باكية.

في هذا البيت الغريب الأطوار تبعا لحالة ساكنيه يسود نوع من الهدوء الحذر دوما والانتظار المشوب بالترقب. نوع من الشعور الذي اعتدت أن اسميه في الماضي شعور الفنادق.

ورقة

شربنا قهوتنا في مطعم فندق المدينة الفاخر نزولا عند رغبة أمل في أن تجلس على كراسي هذا الفندق الذي نمر به يوميا دون أن نجرؤ على الدخول إليه.. فندق في غاية الأناقة والثراء والنظافة، وجميع العاملين فيه يرتدون أطقم حمراء بأقلام سوداء على الأكمام، يروحون ويجيئون في أدب جم يحملون ما يقدمونه..

خرجت أمل عن صمتها إزاء هذا المكان، وطلبت مني أن نتناول قهوة الصباح فقط فكل مرتبي لشهر لا يكاد يسد أكثر من ثمن فنجاني قهوة فيه..

كانت أمل مبهورة بهذا العالم الذي تكن له الكثير من الإعجاب وقالت لي إنها تود أن تعيش في ثراء مماثل لهذا.

– تخيل أن تصحو في مكان أنيق ثري كهذا.. سعادة كبيرة فيما أعتقد.

– في حقيقة الأمر لن تجدي منزلا في العالم يضاهي فخامة فندق، ذلك أن الفنادق أقيمت لتكون محطة ليس إلا، وهذا المحطة يجب أن تكون جاهزة لاستقبال القادمين الجدد دوما.. ولكن هذه الأمكنة مجردة من الذاكرة ومن همس الأرواح التي عبرت بها. وإن البيت الذي نسكنه بكل يقين أقل قدرا بكثير من الفندق، ولكن شعور الفنادق شعور مؤذ ومؤلم عندما تعلمين أنه بعد قليل أو كثير من الوقت ستغادرين هذا المكان وتتركين كل ما به لقادم آخر.. نفس السرير الذي استقبلك اليوم استقبل غيرك البارحة ومستعد لاستقبال آخر غدا..

ألا ترين أن أي زوجين جديدين لا يسلمان ذاكرتهما الأولى لسرير الفندق؟ وإن فعلا بقيا في حسرة إضاعة لهفتهما الأولى في شراشف فندق ستغسل بالديتول فور حلول الصباح.. الفنادق لا ذاكرة لها؛ لأنها لو فعلت تحولت إلى بيوت وصارت أقل فخامة من البيوت التي نقطنها..

نحن نشعر بأن المكان لنا عندما نحشر في أحد زوايا خزانته كيسا ما، أو عندما نضع الحذاء تحت الطاولة، أو نرتب أشياءنا الصغيرة كمقص الأظافر مثلا في أماكن غريبة..عندما تضعين الكتاب تحت مخدتك وأنت توقنين أنك لن تضطري لتبديل مكانه غدا عندما تغادرين الغرفة، فالغرفة باقية والأماكن محتفظة بذواكرها.

خروج من الذاكرة

في المساء زارتنا سميرة.. لم يتغير في ملامحها شيء سوى آثار عبور الزمن، على ملامحها خطوط صغيرة تحيط بالعينين، وبدانة لم أعتد أن أراها عليها.. لكن تمردها لم يتغير فيه شيء، وأوله كان تمردها على مساحيق التجميل والأصباغ وحتى لون شعرها الذي توشى بخصلات بيضاء لم تقم بتلوينه، وكعادتها عقصته إلى الخلف في جديلة طويلة تستلقي على ظهرها.

ما تزال صديقة الجينز واللبس الرياضي العملي.. ومع أنني أعرف مدى علاقتها المقربة من أمل، إلا أنني الآن انتبهت كم هما على طرفي نقيض قلبا وقالبا..

أمل التي تهوى مظاهر الثراء والاهتمام بأناقتها إلى حد قد يبدو مضجرا أحيانا، وصديقتها المهملة للأناقة بشكل ملحوظ. ولم أجد تبريرا لهذا سوى أن أمل دوما تريد أن تشعر بتفوقها على

سميرة بجمالها وأناقتها.. ملازمتها لصديقة تناقضها يبرز مفاتنها المعتنى بها.

استغربت من نفسي كيف لم ألتفت لسميرة يوما، وكيف أبهرتني أمل!. ولكنني الآن تيقنت أن الحقيقي والصادق لا يعطيك كل مفاتيحه، وإنما عليك أن تبحث عنها في مجموعة صناديق موزعة في أمكنة مختلفة عليك أن تجربها كلها وغالبا يكون الصندوق الأخير هو الذي يحتوي على المفتاح الصحيح.

ولكن هل ستكون سميرة مفتاحا صحيحا.. ولماذا؟.

ربما لأنني سأستمتع بسماع بوح أمل ومكنوناتها والأحداث التي تمر بها خارج جدران هذا البيت القبر.

كنت أفكر كيف سأذكي في أمل ذاكرة الأمومة الضائعة لتجعلني أشاركها غرفة الضيوف التي انفردت فيها مع سميرة.. ذلك أن سميرة عندما نظرت في عيني انتفضت ملأى برعب غير معروف سببه، وقرأت في عينها حيرة وشكا كبيرا.

بدأتُ في الصراخ والبكاء، وحاولت زوجة الخال أن تهدهدني في المهد الصغير ولمحت في عينيها نوعا من القهر ودموعا تنذر بالمطر.. لكنني تابعت الصراخ والبكاء باللغة التي أقدر عليها طالما أنا حبيس هذا الجسد الغريب..كنت أبكي لسببين: كي تنتبه أمل لي وكنوع من المشاركة الوجدانية مع زوجة الخال المتألمة.

وبعد محاولات فاشلة في إسكاتي حضرت الجدة وحملت المهد.. تابعت البكاء فلا أريد أن يستقر بي المطاف في غرفة الجدة، لكن تقديراتي أخطأت إذ أنها فتحت باب غرفة الضيوف بعصبية أجفلت منها أمل وسميرة وقالت بلهجة حازمة فيها نبرة غضب مكتوم

– تحتاجك الطفلة.

حملت أمل المهد ووضعته على الكنبة، ولم تفكر في البحث عن سبب بكائي لكنني كنت قد صمتت لأنني أريد أن أتابع الحديث بين الصديقتين.

لا أعتقد أن أمل تكن شعورا حقيقيا صادقا إزاء سميرة، ولا إزاء أي شخص في هذا الكون، إذ تشكلت لدي من زمن كبير القناعة أن من لم تحركها عاطفة الأمومة فهي مجردة من المشاعر.

ورقة

قابلتها في مكتبي بالجريدة.. أتت لكي تشرح مشكلة خدمية في حيهم وتريد أن تكون الجريدة منبرا حرا للتعبير عن مشاكل جيرانها وأهلها بحيث يصل صوت هؤلاء المغلوبين إلى إسماع من بيدهم الحل.

فتاة لطيفة وبسيطة في ملبسها أوجزت مشكلتها في عدة جمل قصار وشكرتني ثم خرجت.

كان في عينيها نوع من حنان غريب افتقدته منذ زمن طويل، ولكنني لم أكن مهيأ لحوار مع أي أنثى بعد أن تركتني أمل بطريقتها الدراماتيكية. كنت جافا معها لسبب خارج عن إرادتي مما جعلني عرضة لتقريع الذات بعد أن غادرت مكتبي.

"جميلة" عادت بعد عدة أيام لكي تقدم لي شكر أهلها وجيرانها على اهتمامي بشكواهم، وقدمت لي أنواعا من الحلوى صنعته نسوة من حيها عربون شكر.. لكنني رفضت أن أقبل هذه الهدية، فما قمت به لم يكن إلا من واجباتي.. على أن

رائحة الحلوى المخبوزة في البيت عششت في تلافيف مخي، وردتني إلى أيام طفولتي الفقيرة حيث كان على أمي أن تصنع الحلوى لقاء أجر زهيد يمكنها من رعايتنا والقيام بأمرنا.. كانت تصنع يوميا العديد من قوالب الحلوى و نكتفي بالتهام الرائحة فهي الوحيدة المتاحة لنا مجانا...

لم نكن نطلب من أمي أن تصنع لنا شيئا نأكله في البيت من حلواها؛ فنحن نعلم أن هناك ما هو أكثر ضرورة من هذه الحلوى اللعينة التي أدمنَّا رائحتها.

وعدت "جميلة" بزيارة ميدانية إلى الحي لتفقد سير عملية الإصلاح التي وعد بها المسؤولون، وكنت في قرارة نفسي أبحث عن حجة مناسبة لألتقيها وسط أهلها وفي حيها..

كان الحي الذي تقيم فيه "جميلة" لا يختلف كثيرا عن الحي الذي نشأت به، وفيه الكثير من الفقر والعوز والدفء أيضا.

ليس مستغربا أن يحاول الفقراء بث الدفء المنبثق عنهم عندما يفتقدونه خارج قلوبهم.

تكـررت زياراتي لحـي "جميلـة" وبـدأت أقـيم علاقـات وثيقـة مـع أهلها، لأجدني ذات يوم خاطبا لها ومغرما بها وبهم معا.

خروج من الذاكرة

أمل وسميرة تبادلتا المجاملات التي تجري عادة بين صديقتين افترقتا لفترة طويلة غير أن أمل قطعت حديث ذكريات الجامعة وفاجأت صديقتها بسؤال

-لماذا تركت أخي لهذه المرأة اللعينة؟.

- لم تكن هذه المرأة في حياته عندما غادرت.

- لكنها استولت عليه.

- لعلها تستحقه أكثر، ولعله يحتاجها أكثر هو الذي قرر أن ينهي العلاقة وقال جملة وحيدة مربكة وقصيرة.. ليس بمقدوري إسعاد أنوثتك .. تزوجي رجلا.

- كيف هذا ؟ هل تعنين أن هذا سبب عدم إنجابه طفلا حتى الآن؟.

- كيف بمقدوري أن أعرف السبب؟ المهم أننا افترقنا وكفى، وأنا أجد زوجة أخيك امرأة محبة له ،وإلا ما الذي يجعلها تتحمل غيابه الطويل عنها؟.

- هي تسيطر عليه وتحصل على كل ما تريده.. إنها امرأة جشعة.

- يكفي أنها تعتني معك بطفلتك.

- لم يطلب أحد منها ذلك.

التفتت سميرة نحوي وقالت: عندما انظر لهذه الطفلة أشعر بخوف غامض.. عيناها ليست عينَيْ طفلة..

أحس أنها تدرك كل كلمة تسمعها..

هل تصدقين أنني أحيانا أحس كأن رجلا معي في نفس الغرفة؟.

لها عينا شخص كنا نعرفه سوية ولكن لا أعرف ماذا حل به الآن.

لكن سميرة لم تقل من هو الشخص الذي عرفتاه سويا.. بل إنها على الفور استأذنت وغادرت.

فيما حملت أمل المهد ووضعته في الصالة.. وكأنها تضع شيئا لا يعنيها، أو يمت لها بصلة.

في تلك الليلة أتى شقيق أمل.. في كل مرة يأتي بها لا يتسنى لي أن أراه جيدا.. يبدو عليه أنه رجل مغلوب على أمره وطيب وتقاطع هذا مع ما قالته سميرة من ملاحظات.. لكنني لاحظت فعلا كم تحبه زوجته..

ورقة

رتبت أمامها قصاصات من أقمشة مختلفة وبدأت خياطتها مع بعضها البعض وفق مخطط رسمته مسبقا.. حصلت على القصاصات من ملابس قديمة وما تبقى من خياطة ألبسة جديدة..كانت تؤدي هذا العمل المضني وابتسامتها لا تفارق وجهها.

- جميلة ما هذا الذي تفعلينه؟

- اصنع للمولود لحافا

- هل ستبدئين حياته بالرقع لتكون فألا سيئا يلازمه ما يتبقى من حياته؟

لم لا تفكر بطريقة أخرى وترى أنني شكلت لوحة من أجمل الألوان لأعلمه كيف يصنع الفرح في حياته من القصاصات المتيسرة؟.

خروج من الذاكرة

أتت في الصباح.. طرقت الباب، فتحت لها زوجة الخال.. أعرفها تماما من صوتها الرقيق، وعندما دلفت إلى الصالة كانت ترتدي التنورة القصيرة تلك ونظارتها الرقيقة..

استقبلتها أمل بابتسامة وغادرت إلى عملها الجديد دون أن تفكر بإلقاء نظرة صغيرة عليّ.

تذكرتها عندما وقفت عند القبر، وكانت في محجريها دموع لم تطلقها إلا إنسانيتها الغامرة، لكنها بمجرد أن نظرت في وجهي داهمتها حيرة غريبة، فلم تستقر عيناها بعد ذلك علي إلا لتطرح أسئلة مبهمة.. كانت آتية لتزور عمتها، زوجة الخال.

- عمتي هل هذه الطفلة ابنة أمل؟

- نعم.

- في عينيها شيء غريب أحس أنني قابلتها يوما ما.

- لا تسرفي في خيالاتك وأفكارك يا رؤى.

كم جميل اسمها لا يناسب أحدا سواها.. هي كالحلم اللطيف في ليلة قارصة البرد.

كانت تنهي دراستها الجامعية لتعمل فيما بعد بالصحافة.. عرفت لماذا سكنها هاجس أن تزور القبر، ومن قبل أن تطرح تساؤلاتها عن ملابسات السقوط الذي اعتقدت أنه الأخير.

كانت أيضا ذكية جدا، أو أن إحساسها مدرب لتلتقط الإشارات وتعيد ترتيبها في تسلسل منطقي.. وهي بكل الأحوال مهارة لا تتأتى إلا لمن صدق مع ذاته وعرف هدفه.

زيارتها مرت كالنسمة اللطيفة وأحسست أنها محبوبة من الجميع، حتى من الجدة وأمل. أمل ما استطاعت أن تقابلها إلا بابتسامة، مع أنني صرت أشك في قدرتها على التواصل الإنساني الخارج عن مصلحتها.

تشكلت لدي قناعة أن هناك أصنافا عديدة من النساء، فمنهن الأنانية كأمل، ومنهن المتفانية والمضحية كجميلة، والذكية المتوقدة كرؤى، والصموتة البعيدة الغور كزوجة الخال

والجدة.. غير أن هناك رابطا أنثويا وأموميا يجمعهن جميعا، وكل منهن تلون شخصيتها بطريقتها الخاصة التي تناسب قدراتها وإمكانياتها الأخرى.

كل منهن أم كامنة في ذاتها، لكن منهن من تئد أمومتها ومنهن من تغلبها حتى تطغى على كل جوانبها الأخرى.

ورقة

في هذا المسرح المتواضع جلست أنا وأمل في المقعد الثالث من الأمام.. كنا مدعوين لحضور مسرحية ماكبث لبعض الرفاق في كلية التمثيل والإخراج.

كانوا على ضعف إمكانياتهم رائعين جدا يوظفون حركة الجسد لتعوض عن نقص قطع الديكور في المسرح الفقير.

الصديقة التي أدت دور الليدي ماكبث، اقتربت بعد العرض منا وحيتنا.. وبدورنا أثنينا على أدائها.

أعجبت أمل بشخصية الليدي ماكبث القوية، وهاجمت شكسبير لأنه عاقبها بالجنون في نهاية المسرحية.

- كانت الليدي ماكبث يا أمل امرأة تنكرت لأنوثتها جراء معاناتها لعقدة ديانا، ألم تلحظي هذا؟.

– وماذا في الأنوثة من مميزات لتتمسك بها؟ أنتم من يتحكم في هذا العالم.

– لا أعتقد هذا؛ فالأنثى هي من حكمت العالم منذ البدء وهي الأساس ولولا تفاحتها المباركة ما ابتدأت البشرية.

– لن يكون بمقدوري أن أقتنع يوما أنني خلقت لأكون أما فقط..

أريد أن أعيش حياة مليئة بالمسرات والرفاهية لا أن أدفن نفسي وراء قناع الأم.

خروج من الذاكرة

اعتـادت زوجـة الخـال مـع مـرور الأيام علـى رعـايتي بشـكل مستمر، وكانـت أمل لا تكـاد تسأل عـني إلا إذا رأتـني أمامهـا كنوع من رفع العتب عنها أمام والدتها وزوجة أخيها، وربما أمام أنوثتها.

لم تكـن لتعـيرني أي اهتمـام، ولم تلاحـظ أنـني صـرتُ أبيـتُ في غرفة زوجة الخال بشكل مستمر.

هذا المساء أتى الخال وكانت زوجته تجلس عند حافة السرير وتبكي بشكل صامت وهي تهز السرير الصغير.

- أعرف انك تظلمين ذاتك بالبقاء.
- لأني أحبك سأبقى.
- لكن لا فائدة.

- يوما ما سيكون.. أؤمن بك.

عانقها بحنان بالغ.. في ذات اللحظة... أدركت ما عنته سميرة بحديثها لأمل عن إنهاء علاقتها بالخال بناء على رغبته، وأدركت لمَ لم تنجب امرأة الخال حتى الآن رغم مرور سنوات على زواجهما. وهاهو الآن إذ يجزم بأن طوق اليأس أحكم حول زواجهما تتولد حياة أخرى من جديد.

في اللحظة التي تستيئس فيها من خروجك من المتاهة ترى المفتاح بين يديك.

تناومت وأنا أرى المشهد الحميمي يزداد بينهما، ولعنت نفسي وأنا اطلع على ما لا يحق لامرئ أن يطلع عليه.. بررت لنفسي أنني حبيس هذا الجسد الطفولي، لكنني أنا من أحكمت جدران هذا السجن حول روحي الطليقة..

في الصباح كانت زوجة الخال مشرقة كما لم أرها منذ دخلت هذا البيت.. قبلت الجدة بحنان بالغ وطلبَت منها أن أنام منذ اليوم في غرفة الجدة.

ابتسمت الجدة وقد أدركت ما يعني هذا ونظرت برضا بالغ في عيني.

تغيرت تصرفات زوجة الخال بشكل كامل وأصبحت إنسانة مرحة وخرج البيت المقبور من صمته..

المذياع يصدح من جديد بالأغاني والأخبار والبرامج، والنوافذ فتحت للشمس، وبددت رطوبة المكان، وصرت أسمع من الشارع صراخ الأطفال وأصوات السيارات وضجيج الباعة والمارة.

هذه المرة الأولى منذ سقوطي الذي اعتقدت أنه الأخير أعيش الضوضاء المحببة من جديد.

لم يعد يعنيني أن أراقب أمل وتحركاتها وتأنقها وخروجها المريب.. استغربت من ذاتي هذه القدرة على تجاهلها، وأنا الذي قضيت أياما وسنوات طويلة أحاول نسيانها وعلاج الطعنة الأليمة التي خلفتها برحيل مفاجئ.

أزعم أنني الآن عرفت أمل حقا، وفيما مضى كنت أعرف ملابسها وتسريحة شعرها وعلو كعب حذائها..

تيقنت في هذا الوقت من صحة الإشارات التي قرأت عنها في رواية ما[1].

كانت هناك إشارات واضحة إلى منهج تفكيرها، ولكننا في حال الحب لا نلتفت للإشارات.. نضيعها واحدة تلو الأخرى، ومع مرور الوقت تمل الإشارات من تجاهلنا لها فتتوقف من تلقاء نفسها عن الظهور..

هل كان يتوجب علي الاقتراب منها بهذا القدر لأكسرها في داخلي؟. أو لعلي لو حافظت عليها تمثالا جميلا انفض عنه الغبار كل يوم كان أفضل لي ولها أيضا؟ ولعلها لو كانت في

---

[1] - الخيميائي – باولو كويلو

مكــاني الآن وتعرفــت إلي عــن كثــب لفقــدت "انبهارهــا" بشخصيتي كما كانت تزعم..

ورقة

كانت أمل تتأمل في وجهي في ذلك المقهى المنزوي في حنايا المدينة القديمة.. اتخذنا طاولة بالقرب من حائط أثري لنحظى بالانفراد قدر الإمكان.. تحدثنا في أشياء كثيرة لا يحضرني ذكرها الآن لكن ما أتذكره الآن أنها كانت مواضيع لا تمت لما نفكر فيه بصلة.. كنا نحوم عند الموضوع ولا نلج فيه تهيبا وخشية وحياء.

كنت أشعر بقلق عارم لدى مخاطبة أنثى بشأن مشاعر تمور في داخلي   فتخذلني بالرفض، أو تتملص بمجاملة لطيفة تحوي في ثناياها الرفض.. من أجل هذا كنت دوما أنتظر هذه المبادرة من الأنثى فهي لا بد قد حسمت أمرها.

كلمتني عن والدها المتوفى ووالدتها الصارمة سليلة أسرة كانت فيما مضى ثرية جدا، وأخيها وآمالها وما تتمناه لمستقبلها، ثم قطعت حديثها فجأة وقالت:

- أتدري؟.

- لا.

- أحبك.

قابلتها بصمت غبي.. ساد بيننا لحظات عدة، حدقت أثناءها في وجهي منتظرة ردة فعلي، فوجدت أنني يجب أن أحسم أمري المحسوم مسبقا الآن . أقصد علي أن أعلن الآن ما هو كنه شعوري.

أحسست أنها أصيبت بخيبة أمل جراء تسرعها في كشف أوراقها كاملة دون حساب للعواقب..

هذا ما كنت أود أن أقوله لك منذ فترة طويلة، غير أنني لم أمتلك الشجاعة الكافية.

انفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة خلتها ابتسامة طمأنينة.

داعبت حواف فنجان القهوة بأصابعها المطلية بلون قرمزي مثير بعد أن انطلق لساني بما كنت أخشى أن أقوله من قبل.

خروج من الذاكرة

ستأتي هذا النهار لتزورنا رؤى .. تلك فتاة الجامعة بتنورتها القصيرة ونظارتها البيضاء.. فتاة مهذبة ومثقفة، وتستطيع احتواء من حولها بمحبتها، تماما كما كانت عند السقوط الذي اعتقدت أنه الأخير، وكما كانت عند القبر حين كان جسدي المنهوب غذاء في بطن الدود.

كانت تقترب كل مرة من الكرسي الذي أجلست فيه بثياب طفولية زهرية أنثوية، وتنظر في عيني بريبة واستفهام ،كانت تستطيع بعينيها أن تدير حوارا مع عيني.

– أجزم أنني رأيتك قبلا.. لكن ما يحيرني أنني رأيتك في ثوب آخر.. في شكل آخر.. رجل في العقد الخامس على أرضية حديقة البناء لم يعرف أحد كيف أتى أو فيم أتى، كأنه هبط

إلينا من السماء الزرقاء.. هاتان العينان كانتا مفتوحتين عندما أغلقهما بيده طبيب الإسعاف..

لكنهما هما.. كيف التبستا في هذا الثوب الطفولي؟..

تحيرينني يا ندى وتحيرني ذاكرتي، فهل ثمة رابط بين هذا وذاك؟!

هل ما يقولونه عن ارتحال الأرواح في أجساد مختلفة صحيح أم لا؟.

قرأت كثيرا عن حالات تقمص لكنني لم أتأكد من صحتها، فما من أحد سيكتب قصة ما بتجرد.. سيلوّنها من ذاته وأهوائه ويسبغ عليها من روحه.. ما من أحد سيكون موضوعيا صرفا مهما اجتهد، وربما لو صدق حدسي ورويت القصة سأضيف عليها من انطباعاتي ومشاعري وتحليلاتي.

كنت أخشى أن تحول حوارها الصامت هذا إلى لغة منطوقة تتداولها مع عمتها أو الجدة، أو حتى أمل التي لم تعد من عملها بعد..

ثمة ضوضاء شديدة شدت انتباه رؤى وأبعدتها عني باتجاه الباب مع عمتها والجدة، وإذ فتحتاه كانت سميرة تمسك بين ذراعيها أمل وهي تهذي وتتخبط وتضحك وتبكي في آن معا.. كان شعرها منكوشا وملابسها ممزقة وجسدها يظهر من أنحاء عدة، وكانت سميرة تحاول أن تهدئ من روعها.

ساعدتها والدتها وسميرة وأدخلتها إلى غرفتها الصغيرة.. كان من الواضح أن أمل تعاني من حالة سكر شديد أو انهيار أعصاب شديد.

التزمت زوجة الخال الصمت، وكذلك رؤى وكانت تريد أن تستأذن بالرحيل، لكن الجدة استبقتها وقالت لها إن أمل بخير الآن، ولا شيء يستوجب القلق.

لكن رؤى أصرت على المغادرة وقد شعرت أن وجودها يسبب حرجا ما.

وفي هذه اللحظة تعاظم شعوري بالخذلان والتطفل...

أرى نفسي الآن اطلع

على ما لا ينبغي، ولمت نفسي أن رأيت أمل مع أنها لم تعد تعنيني في هذه الحالة المزرية.

خرجت سميرة أيضا، وقررت الخروج مع رؤى سوية والعودة في الغد.

لم أرَ أمل طيلة الصباح، مع أنني سمعت الجدة تقول إنها لن تذهب اليوم للعمل، وعند العصر ألبستني زوجة الخال ملابس الخروج، وقالت إنها ستتمشى في الحديقة القريبة.

هذه أول مرة أخرج بها للشارع منذ شهور.. أحس أن كل شيء جديد ومغسول، حتى السماء لونها جديد كأنها طليت للتو بأزرقها الصافي.

كانت نفسي قد عافت اللون الزهري الذي غمرت به منذ دخولي عالم الأنثى، وها أنا على حافة التضاد اللوني الذي يضمن التوازن.

حدقت في السماء الزرقاء التي كانت تتأهب لارتداء وشاحها الوردي الربيعي.

كانت سعادة زوجة الخال بخروجها من المنزل أكثر من سعادتي، وانتبهت أنها طوال فترة وجودي معهم لم تخرج إلا مرات نادرة من البيت، على عكس أمل التي نادرا ما فاتها نهار واحد دون أن يكون لديها عمل تتذرع به.

في الحديقة بقيت أنا في العربة، بينما اتخذت زوجة الخال مقعدا في ممر تتبادل فيه الأشجار على الجانبين حديثا وديا.. ومن خلال انفراجات صغيرة رأيت زرقة السماء والندف الأبيض منثور فيها دوائر وأشكال، كأن طفلا عملاقا يجلس على حافة الكون يصنع فقاعات قطنية ثم يتسلى بفقئها من جديد.

لو كنت في مكاني الأول قبل أن أسقط السقوط الذي اعتقدت أنه الأخير، لكتبت قصيدة عما أرى.. لو كنت في مكاني الأول لن أكتب تلك القصيدة فقد استهلكتني الحياة حتى لم يعد لدي متسع من الوقت، ولا متسع من الرغبة، لأحدق بشيء سوى طريقي اليومي إلى عملي، وشجاراتي المستمرة مع رئيس التحرير، حول مقال البارحة، ومكافأة النشر الزهيدة، والطفل الذي سيأتي، والذي تخيط له جميلة لحافا من الرقع، تسميه عملا فنيا، وهو لا شيء سوى استهلال لحياة بائسة بالبؤس ذاته.

بعد قليل حضرت رؤى إلى الحديقة وبدا أنهما متفقتان على اللقاء.. تناولتا حديثا مقتضبا حول جمال الحديقة وروعة الطقس، ثم تساءلت رؤى عن حالة أمل فأخبرتها عمتها أن حالتها ليست على ما يرام، وأنها عاودت سيرتها الأولى من الإغراق في الشراب والعلاقات المتعددة.

بدا لي أنني دخلت غرفة مصمتة لا أسمع فيها إلا كلام هاتين المرأتين وهما تتكلمان عما أجهله عن أمل، فهي مدمنة على الكحوليات وذات علاقات متعددة ولم يعرف الحب طريقه يوما إليها.. تمنيت لو أنني لم أدخل في هذا الجسد ولم أعرف ما عرفته الآن.

أين كانت فراستي؟ وهل كنت غبيا إلى هذا الحد؟.

أحيانا يغدو العالم برمته إنسانا واحدا يفجر فيك مشاعر بعينها، ولا تكاد تعي شيئا خارجا عن إطاره، لا تكاد تهتم بما يدور على سطح البسيطة إلا فيما يختص به، تدور الحوادث حوله، تنبع المفاجآت من قبله، يزهر دمك في راحتيه، يعشوشب قلبك في حناياه، وتقوم بوأد فكرك حتى إشعار آخر، وأنت بكامل قواك العقلية.

تذكرت عندما انتظرتها عند بوابة المدرج لساعتين كاملتين..

كنت أنتظر انتهاء المحاضرة لألقاها.. خرج الجميع ولم أجدها، ثم رأيتها قادمة من الباب الآخر.. لم تكن في المحاضرة ولم أسألها أين كانت..

كان هناك شيء ما في داخلي يطرح السؤال عن غرابة أن تضرب لي موعدا في الثامنة بعد انتهاء محاضرة الساعة السادسة، وأن لا تكون في المحاضرة أصلا، ولكنني تجاهلت السؤال.. هناك جذوة من محبة أريدها أن تبقى متقدة كي لا يداهمني الإحساس باليأس والاكتئاب والكفر بقدرة المحبة على الاستمرار. لكن سلسلة من الأسئلة تبدأ في التراص في عقد متماسك لتطرح ذاتها في ابتذال غريب.. هذه الأسئلة أفقدت الحب رونقه، والذاكرة الجميلة التي حافظت عليها سنوات طويلة حتى وأنا مع جميلة أنتظر مولودنا الذي لم يأت أبدا، كلها بهتت كأنها تعرضت لغسيل جائر بأيد غير معتنية.

كم أتمنى الآن لو أن القمر بقي صديق الساهرين والعشاق، ولم يتحول إلى سطح صخري بثقوب وفوهات.

ما تبقى من حديث دار بين رؤى وعمتها لم يعد يعنيني كثيرا، فأمل نفسها لم تعد تعني لي شيئا، لكن رؤى نظرت إلي في ريبة وقالت:

هذه الطفلة تنصت لنا.. انظري يا عمتي إلى عينيها.

كم أخبرتك أن لها عيني إنسان كبير مدرك. لست أدري لمَ يتبادر إلى ذهني كلما رأيتها ذلك الرجل الذي وقع في فناء بنائنا منذ سنتين أو أكثر، ولم يعلم أحد حينها فيمَ أتى ومن هو وكيف مات؟.

اتضح فيما بعد أنه يعمل صحافيا، وكان فقيرا جدا ماتت زوجته وهي تضع مولودها قبل موته بعدة أعوام.. لكن سبب موته كان فيما يبدو سقوطا لم يعلم سببه حتى الآن.. زرت قبره فقد كان لي لغزا محيرا، وأحسست أنه ينصت لي وعندما رششت الماء على قبره شعرت به يشكرني لأنني غسلت وجهه، مع أنني أدرك أن جسده كان قد صار طعاما للدود.

أتعلمين يا رؤى؟ أنا أيضا أرى في عيني الطفلة عيني رجل كان يحب أمل.. كان واحدا من ضحاياها، أوهمته بالحب بينما هي كانت تريد أن تسبر عالم مشاهير المثقفين.. لست أدري أين ذهب وكيف انتهت الحكاية، فقد تعودت أمل أن تنهي حكاياتها بطريقة غامضة دون الإشارة إلى ما فعلت بضحاياها، ودون أن تتذكرهم فيما بعد.

رغم حنقي على أمل وصدمتي بها، إلا أنني شعرت أن هذا فيه تجنٍّ فاضح عليها، خصوصا أن العلاقة الأزلية ما بين أخت الزوج وزوجة الأخ علاقة شائكة منذ الأزل.

عدنا إلى البيت.. كانت الجدة تجلس في الصالة وغرفة أمل مضاءة تسمع منها أصوات قهقهة وضحك ماجن.. لم تكن سوى أمل وسميرة تحاول أن تهدئها ولكن يبدو أنها، عجزت فقد خرجت من الغرفة والإعياء باد عليها.

– إنها تعاني من أزمة كبيرة.

– أدرك هذا، هل تناولت الكثير من الشراب؟

- نعم لكن بعد أن أصيب بصدمة كبيرة.. ذلك الرجل الثري الذي تعرفت إليه في المطار وظفها عنده براتب كبير ولكنه آذاها في كرامتها وأهانها واعتبرها أنثى للجميع..

قالت الجدة بحزن بالغ أسمع نبرته منها للمرة الأولى:

لطالما اعتقدت أنها الأذكى والأجمل.. لم تقنع يوما ولم أعرف ما تريده حقا. حتى ذلك الصحفي الذي تقدم لها يوما انتهت منه بطريقة ما، ولم أعلم عنه شيئا.

لقد مات منذ عامين في سقوط يعتقد أنه انتحار.

كأنني الآن استرجعت ذاكرتي قبل السقوط الذي اعتقدت أنه الأخير.. كأنني الآن مرفوع عني حجاب الماضي والحاضر.

ورقة

كنت في مكتبي بالجريدة ألملم أوراقي بعد أن أنهى رئيس التحرير خدماتي.

كان يريدني أن أقوم بحوارات صحفية مع راقصات ومغنين من تلك الفئة التي تزخر بها النوادي الليلية. ولكنني رفضت أن ألوث قلمي وتاريخي بالانحدار إلى هذا المستوى.. ربما كنت سأجعل منهم شخوصا في رواية أعتزم كتابتها لكنني لا أستطيع أن أروج لما يفعلونه..

ما يفعلونه انتهاك فاضح للفن واستخدام لاسمه بصفاقة.

أعرف أن منهم بؤساء ومرغمين، وأوقن أنهم يعيشون على حافة المجتمع المهملة حيث يرمي الجميع فضلاته ، لكنني لا أستطيع أن ألمع صورهم.

وها أنا الآن عاطل عن العمل. لكنني أقنع نفسي أنني فعلت الصواب، وأن نقاء الاسم يستلزم الكثير من التضحيات.

جمعت أغراضي في صندوق صغير، وهي ليست كثيرة في كل الأحوال، وهيأت نفسي للرحيل حين دخلت بكامل جمالها وإغرائها.. ترتدي ملابس ليست للنهار وليست لليل أيضا.. كل ما فيها يبرق ويلمع من قمة أقراطها وحتى أخمص خلاخلها الذهبية .

بدلال أنثوي وبخلاعة محببة قالت لي إنها تعمل راقصة.. كان كل شيء فيها يتمايل ويميل رأسي المتعب.

- أنا أحب ما تكتب.

فغرت فمي منشدها من راقصة تقرأ.

- لا تندهش فأنا أحمل شهادة جامعية والرقص مهنة تشبه كل المهن.. أنا طبيبة تداوي القلوب المتعبة.. كما تداوون مشاكل الناس بحروفكم.. كما يداوي الطبيب مرضاه بوصفاته الطبية.. أعرف أن ما أفعله لا يروق لكثير من الناس، وكثير ممن يسهرون معي يحتقرونني في الصباح القادم، ولكنني أشعر أن الحياة التي تمر بي حياة مختلفة.. أشعر أنها تاريخ لا يتكرر مرتين.. قد تدهش من هذا، لكن في داخلي إنسان أخطأ كثيرا، وحزن كثيرا، و لهذا السبب بالذات أريد أن أكتب سيرة ذاتية . لن أدعي القدرة على كتابتها فأنا لا أمتلك هذه الأداة المهمة، ولا يليق بي أن يكتبها لي صحفي مغمور.. أود أن تكون أنت.

لكن أنا لا..

قاطعتني:

لا ترفض، أنت تحتاجني وأنا أحتاجك.. امنح نفسك فرصة للتفكير.

لست أدري كيف أقبل بذات الشيء الذي فقدت من أجله عملي.. ولكن الحياة دوما تختبرنا في قناعاتنا ومبادئنا التي أعلنا عنها يوما ما. وعندما نفشل في الامتحان يكون الخجل من الآخرين الذين أعلننا أمامهم عن قناعاتنا أكبر من خجلنا من ضمائرنا.

في ذات النهار الذي رفضت أن أكون محررا لإخبار الراقصات قبلت عرضا بكتابة السيرة الذاتية والإبداعية لراقصة.

لعل السعر الذي دفعته كان كافيا بإغماض عيني عن نصف الحقيقة المتبقي.. ولعلي عندما رفضت حوارا صغيرا وقبلت بسيرة ذاتية إنما أنقل مركز القوة من يد رئيس التحرير إلى يدي، فأنا الآن المحرر والكاتب.

دعتني تلك الراقصة إلى بيتها.. وقبلت.

كان هناك عدد من الرجال الآخرين.. لم يكن هناك ما يغريني بالحضور لكنني أردت أن أجد سلوانا ما بعد رحيل جميلة والطفل..

لم أنتبه إلى ملابسي الرثة وذقني الطويلة وشعري المشعث إلا عندما رأيت هؤلاء الرجال بالغي الأناقة بساعات ذهبية وأحذية لامعة وضحكات صفراء ورغبات تفوح فوق رائحة عطورهم الثمينة.

عندما دخلت الشقة الدافئة الممتلئة بالأشياء الثمينة والغالية تعاظم حزني على جميلة التي ماتت وهي تضع مولودنا الذي أعدت له لحافا من الرقع والذي ربما مات اعتراضا على حياة تبدأ بالبؤس ولا يبدو أنها ستغير مسارها في قادم الأيام.

قدمت لي كأسا من عصير ممزوج بشيء آخر فلم أقبله.. شعرت بالجو الخانق في جو الصالة الدافئة فسألتها إن كان ثمة شرفة للشقة.

أرشدتني لها وخرجت.

وجدت نفسي وجها لوجه معها..

أمل تقف في الشرفة رفقة رجل.. غاضت ابتسامتها التي كانت تهديها له وابيض وجهها وتجمدت ملامحها.. لم تنبس ببنت شفة وغادرت المكان بسرعة وتبعها الرجل الأنيق.

أفكار كثيرة عصفت برأسي عما يمكن أن تكون مهمة أمل في شقة راقصة رفقة رجل ثري.. استجمعت ذاكرتي المتعبة.. تذكرت كم تهوى الفنادق الفارهة والأماكن الثرية وهذه الهالة المضيئة التي تحيط بالثراء.

لست أدري كم مضى من الوقت وأنا واقف في مكاني ولم يأبه لغيابي أحد حتى صاحبة الدعوة.. و لم أستغرب فمثلي لا يؤبه له.

عادت أمل تمسك بين يديها كأسا تترنح

اقتربت مني وقالت:

- لم أتيت؟

- مثلك تماما.. ضيف.

– أنا لست ضيفة هنا.. وأنت تتبع خطاي.. أنت تريد تعذيبي.. لكني لن أسمح لك...

اقتربت مني وقبلتني بشراهة كبيرة..كانت رائحة الشراب تفوح منها لكنني لم أستطع أن أنسَ أنها حبيبتي.. عانقتها وحاولت أن أتمسك باللحظة رغم يقيني أنها لن تتكرر مرة أخرى.

عانقتني أيضا ولكنها كانت قاسية في حضني.

صارت تدفعني للوراء وأنا في سكرتها أتخبط.

لم أنتبه أنها تدفعني باتجاه سور الشرفة، ولم أدرك أنها القبلة الأخيرة، ولم أعِ أنني أستند إلى الهواء إلا عندما هويت في سقوطي الذي اعتقدت أنه الأخير.

ورقة داخل الورقة

كانت أمل تملأ أرض الغرفة بالشموع الصغيرة، تتجرد ثم تستلقي بينها كأميرة فينيقية، وتمضي ساعات مطولة في حديث لا أشعر معه بالملل. بعض الشك يتسلل إلى قلبي أنها فعلت هذا مرارا، ولكنني كنت أمارس خداع ذاتي طواعية وأستغبي نفسي وأنا أعلم.

وعندما غادرتني بدأ ضميري جولة الحساب اليومي العسير.. بالغ في لومي نيابة عن القلب الذي لم أستفته ومنع من عيني الرقاد.. أدركت أن الضمير ليس سوى القلب، لاشيء إلا القلب، والقلب غير محدود بمكان هو كل ما فينا فإن ذهب القلب أصبحنا صناديق جوفاء تعيث فيها الشياطين.

خروج من الذاكرة

سميرة والجدة وزوجة الخال اجتمعن على الأسف لأجل أمل، لكن دوافع كل واحدة منهن كانت مختلفة.. أنا فقط من كنت أشعر بخيبة مريرة، والغريب أنني علمت من قبل كل الحقيقة، لكنني مازلت غير مصدق فالحقيقة لا تبدي لك كل زواياها، ولا تعطي جميع مفاتيحها، ولو وقفت الحقيقة قبالة مرآة لانعكس كل شيء، اليمين سيصبح يسارا واليسار يمينا.. وسيحتار السؤال: أين الحقيقة؟.

كانت الضوضاء الآتية من غرفة أمل تعلو حينا وتنخفض حينا لكنها الآن سكنت سكون محيط متلاطم الأمواج بعد ليلة عاصفة.

– لا بد أن التعب أعياها فنامت. قالت سميرة.

دقات متتالية على باب البيت، اندفع بعدها العديد من الرجال يحملون أمل.

كانت جثة هامدة يسيل الدم من رأسها.

مضت ليلة الحزن الأولى في صمت رهيب.. كل منهن أدارت في رأسها سيناريو للذي حصل ولما يحصل الآن وللقادم.. لم تكن أي منهن تضع أمل في حساباتها، فقد كانت لعنتهن في حضورها وغيابها.

هذا الصباح سيعلنون أمل ميتة ويوارونها التراب.. لن يستطيع طبيب الإسعاف أن ينتهب جسدها..

لن يستطيع أن يضع في العلبة المبطنة قلبها وكليتها ولكن الدود سيمارس مهمته الأزلية حتما.

هذا الصباح أريد أن أنهي هذه المغامرة الملعونة.. علي أن أخرج من هذه الطفلة.. علي أن أغادر ندى.

هـذا الصـباح يلفـون أمـل بقماشـها القطـني الأبـيض الأخـير.. لعلها لو فكرت في هذا من قبل لأعدت أقمشة مطرزة لتبدو في ثياب لائقة كما أرادت دوما.

اقتربت مني زوجة الخال وبيدها قطعة من قماش أبيض وكممت بها أنفي.

أنا الآن أعبر الحاجز الزجاجي ما بين الخط الفاصل بين الحياة والموت.. وأرى زوجة الخال تتحسس بطنها.

2013/11/21